د. يوسف نكادي

صقلية الإسلامية النورمانية
في مشروع تعايش الأديان والثقافات

الطبعة الأولى
2023

دار الأمان
الرباط

الكتـــاب: صقلية الإسلامية النورمانية في مشروع تعايش الأديان والثقافات
المؤلـــف : د. يوسف نكادي
الطبعـــة : الأولى : 2023م
الناشـــر: مكتبة دار الأمان للنشر والتوزيع
4، زنقة المامونية الرباط
الهاتف : 0537263787 – الفاكس : 0537200055
البريد الإليكتروني : libdarelamane@yahoo.fr
المطبعـــة : مطبعة الكرامة 4 زنقة المامونية – الرباط – المغرب
الهاتـف : 05.37.20.87.52 – الفاكس : 05.37.20.87.53
البريد الالكتروني : alkarama.imp@gmail.com
الإيداع القانوني: 2023MO2834
الترقيم الدولي : 978-9920-688-75-8

توطئة

عادت مسألة التعايش بين الأديان والثقافات لتحتل موقعا متميزا في الأوساط السياسية والدينية والثقافية والإعلامية عقب نشر صور مسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم في فرنسا وما تلاها من اغتيالات وأعمال عنف. زادت من حدتها تصريحات بعض القادة السياسيين.

ويبدو أن المس بالمبادئ التي يقوم عليها التعايش بين الأديان والثقافات يمثل السبب الكامن وراء موجة العنف بالقول والفعل. وقد كان هذا المس وراء سلسلة الحروب التي دارت رحاها في الماضي بين أتباع الديانات الثلاث. ومن بينها الحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحيين والاصطدامات التي حدثت بين اليهود والمسيحيين بمناسبة انلاع الحملتين الأولى والثانية من تلك الحروب.

وقد ترتبت عن تلك الحروب والاصطدامات، وما تلاها من أحداث خلال القرون اللاحقة، خسائر في صفوف أتباع الديانات الثلاث وتشنجات لازالت تداعياتها مستمرة الى اليوم. ولذلك أخذ مطلب التعايش يشغل بال عموم الناس ورجال الدين والمثقفين وصناع القرار منذ عدة عقود. وقد انتظمت من اجله كثير من المؤتمرات والملتقيات.

والغريب في الأمر أن الكتب السماوية التي ينطلق منها بعض من مسوا ويمسون بمبادئ التعايش تحفل بالنصوص والتعاليم الداعية الى المحبة والوئام وعدم نبذ الآخر كيفما كان معتقده أو جنسه أو لونه.

كما أن تراث أقاليم البحر المتوسط، متمثلا في المصنفات والمآثر العمرانية، يزخر بكثير من الشواهد الدالة على أن الكيانات السياسية التي قامت على ضفاف هذا المجال المائي كانت تقيم بها منذ القدم طوائف اثنية ودينية مختلفة. تعايشت في كثير من الأحيان وساد بينها الود والوئام.

لم يكن أفراد تلك الطوائف يجدون غضاضة في التعامل فيما بينهم. فقد تزوج المسلمون بنساء مسيحيات. كما اشترك المسلمون والمسيحيون في احياء التظاهرات وأقبل اليهود على التحدث باللغة العربية وعرضوا بضائعهم على المسلمين والمسيحيين والتأمت مناظرات بين بعض أعلام الديانات الثلاث.

وفي ضوء ما يعتمل اليوم في أقطار الغرب كما في أقطار الشرق، أضحى من الواجب بذل الجهود لإعادة بناء الثقة والعودة الى الماضي لاستلهام دروس التعايش التي يزخر بها والاستفادة من نهج بعض القادة الذين كانوا وراء ذلك التعايش.

وما ذكرناه ينسجم تمام الانسجام مع الخلاصات التي انتهت اليها عدة مؤتمرات انعقدت لمناقشة قضايا الحوار بين أتباع الديانات، كالمؤتمرين المنعقدين بالدوحة في يونيو 2005 وأكتوبر 2010 والمؤتمر المنعقد ببيروت في شتنبر 2017 والمؤتمر المنعقد بڤيينا في أكتوبر 2019 والمؤتمر المنعقد بالقاهرة في مارس 2021.

فقد نصت بعض التوصيات الصادرة عنها على ضرورة العودة الى التاريخ وقراءته بكل موضوعية وتجرد قصد اعادة بناء الجسور بين المجتمعات وإرساء أسس التعايش والسلام.

كما نصت على ضرورة انخراط الأكاديميين والباحثين في ارساء قواعد الحوار والتقريب بين أتباع مختلف الديانات.

وانطلاقا مما تقدم، يتضح بأن مشروع اعادة بناء الثقة وإرساء أسس التعايش والسلام، مشروع منوط بالمثقفين المعتنقين لمختلف الأديان؛ اذ يتوجب عليهم الانفتاح على بعضهم البعض والمشاركة سويا في أجرأة هذا المشروع باعتبار الثقافة خير وسيلة لتحقيق التواصل والتفاعل الايجابي.

ويكتسي دور ا لمؤرخين ومؤرخي الأدب والمهتمين بتاريخ الأديان أهمية كبرى في هذا المشروع. لأنهم هم المؤهلين أكثر لاستقراء الماضي واستخلاص الدروس والشواهد وعرضها على المثقفين وصناع القرار. وتعميمها بين سائر المتعلمين وعموم الناس.

ذلك ما نروم توضيحه في هذا الكتاب الذي أردنا أن نستحضر فيه تجربة تاريخية، هي تجربة صقلية.

سنتحدث في هذا الكتاب عن مظاهر التعايش الذي ساد فيها بين المسلمين والمسيحيين واليهود خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية . كما سنتحدث عن تجليات الانفتاح والمشاركة بين المثقفين ودورهم في ترسيخ قواعد ذلك التعايش.

وقد ارتأينا توزيع مادته على ثلاثة فصول: فصل أول سنتحدث فيه عن التعدد الديني والتنوع الثقافي في صقلية خلال الحقبتين المذكورتين. وفصل ثان سنستعرض فيه مظاهر التعايش بين أتباع الديانات الثلاث. وفصل ثالث سنتطرق فيه لأشكال

وصيغ الانفتاح والمشاركة التي كانت سائدة بين مثقفي صقلية ودورهم في ترسيخ التعايش.

وننوي إنهاء الكتاب بخاتمة نبرز فيها أهمية دور المثقفين والمؤسسات الثقافية والتربوية في ترسيخ قيم التعايش بين أتباع الأديان والثقافات.

نأمل أن ننجح في تحقيق المبتغى ونساهم من خلال هذا البحث في الجهود التي تبذلها بعض المؤسسات والهيئات والفعاليات من أجل ترسيخ أسلوب الحوار وارساء ثقافة السلام.

والله ولي التوفيق.

يوسف نكادي

وجدة حاضرة زيري بن عطية

في 21 رجب 1444

الموافق 12 فبراير 2023

الفصل الأول
التعدد الديني والتنوع اللغوي والثقافي في صقلية خلال الحقبتين الإسلامية والنورمانية

تقع صقلية جنوب شبه جزيرة ايطاليا. وتعد اكبر جزر البحر المتوسط. تبلغ مساحتها 25.832 كيلومتر مربع[1]. وتمثل أكبر الأقاليم العشرين التي تتألف منها جمهورية ايطاليا. كان يقطنها سنة 2019 قرابة خمسة ملايين نسمة[2] يمثلون مختلف الديانات وعلى رأسها المسيحية التي يدين بها غالبية السكان. وهم موزعين بين كاثوليك، يؤلفون الأغلبية وعدد قليل من الأرثوذوكسيين والبروتستانت. بينما تعد كل من اليهودية والاسلام ديانتي أقليات. ولكن لا يعرف بالتحديد عدد افراد الجالية اليهودية في صقلية. وتفيد بعض الإحصائيات بأن عددهم الاجمالي في ايطاليا يبلغ حوالي ثمان وعشرين ألف نسمة[3]. كما لا يعرف بدقة عدد أفراد الجالية المسلمة المقيمة بصقلية. وقد تجاوز عددهم في شبه جزيرة ايطاليا ككل مليونين ونصف المليون نسمة سنة 2018 حسب بعض الإحصائيات[4]. من بينهم ايطاليون يمثلون 44 بالمائة. بينما يمثل المهاجرون المسلمون الوافدون للعمل في ايطاليا نحو 56 بالمائة ينتمون لمختلف أقطار العالم. ومعظمهم من اقطار المغرب العربي[5].

---

[1] - أنظر التقرير الصادر عن المديرية العامة للسياسات الداخلية التابعة للاتحاد الأوربي تحت عنوان:
Situation économique, sociale et territoriale de la Sicile, Brussels, European Union, 2015, p. 10..

[2] - أنظر موقع المؤسسة الوطنية (الايطالية) للإحصاء:
Istat. Instituto Nazionale di Statistica. https:// www.istat.it
والدليل الخاص بمقاطعات وعمالات ومناطق ايطاليا على الموقع:
https://www.tuttitalia.it
ورد في هذا الدليل أن عدد سكان صقلية بلغ سنة 2019: 4.968.410 نسمة. وقد كان عددهم يبلغ سنة 2013: 5.094.937 نسمة.

[3] - معطيات أوردها موقع الصليب (la croix) بتاريخ 19 فبراير 2015.
- https:// www.la-croix.com

[4] - أنظر مقال:
"En Italie les musulmans veulent une place pour leurs morts "
وقد ورد في النسخة الالكترونية من مجلة Le Point بتاريخ 09 يونيو 2020.

[5] - نفس المقال.

ويمكن القول عموما بأن الجالية المسلمة في صقلية تتألف من عدد قليل جدا من الأفراد المنحدرين من أسر عربية عريقة الوجود في الجزيرة، وعدد من الايطاليين الذين اعتنقوا الاسلام وعدد كبير نسبيا من الأفراد الوافدين الى الجزيرة من مختلف القارات.

ومن المؤسف أن المسلمين الذين كانوا يملكون الجزيرة وبعض مناطق جنوب ايطاليا، في احدى حقب التاريخ، لم يجد احفادهم أماكن كافية لمواراة جثامين موتاهم الذين ذهبوا ضحية الوباء الذي اجتاح ايطاليا وباقي اقطار المعمور منذ شهر مارس 2020؛ فالقانون الايطالي ينص على أن تضع كل مقاطعة قطعة أرض خاصة يدفن فيها غير المسيحيين. ولكن المكلفين بتدبير الشأن العام في معظم المقاطعات لم يحرصوا على تفعيل هذا القانون. فواجه المقربون من المسلمين الذين لقوا حتفهم صعوبات في ايجاد مدافن لهم. وتفاقم المشكل مع تزايد عدد الوفيات. ولم يتم حله الا بعد تدخل الجمعيات وسفارات بعض الدول الاسلامية[1].

كما أن الاسلام الذي كان له حضور قوي في ايطاليا عامة وفي صقلية بوجه خاص خلال العصر الوسيط، لا تعترف به الحكومة الايطالية اليوم كدين رسمي يحظى بوضع قانوني مساو لوضع الأديان الأخرى المعترف بها في البلاد. ولكن ثمة مؤشرات تفيد بأن الحكومة قد تمضي في اتجاه الاعتراف به كما تبين من خلال فعاليات المؤتمر السنوي الحادي عشر للأقلية المسلمة بايطاليا الذي انعقد بمدينة كتانيا (Catania) يوم الأحد 04 مايو 2014. وقد حضر هذا المؤتمر بعض المسؤولين الحكوميين ابرزهم جوزيبي كاستليوني (Giuseppe Castiglione)، "كاتب الدولة" لدى الوزير المكلف بالسياسات الزراعية، الذي ألقى كلمة في المؤتمرين. كما حضرت المؤتمر عدة شخصيات دينية وثقافية ايطالية مثل كيتانو زيتو(Gaetano Zito)، مدير معهد الدراسات الكاثوليكية في كتانيا، الذي أكد في كلمة القاها بالمناسبة، بأن الوجود الاسلامي في ايطاليا عامة، وفي صقلية بوجه خاص، يمتد لفترة طويلة. وقد رسخ مع مرور الزمن قيما يتبناها معتنقو الديانات الأخرى بدورهم مما ساهم في سيولة التعامل بين مختلف

[1]- أنظر في هذا الصدد مقال:

-"Trouver une sépulture, une redoutable épreuve pour les musulmans d'Italie-", Courrier International, édition du 10 /09/ 2020. https://www. courrierinternational.com

فئات مجتمع صقلية. فنشأ في هذه الربوع من أوربا نموذج متفرد من التعايش يجب أن يحتذى اليوم.

ومما لاشك فيه، أن الأنشطة الفنية التي واكبت فعاليات المؤتمر وشارك فيها شباب من مسلمي ومسيحيي مدينة كتانيا ومدن صقلية أخرى، تجسد صورة من صور التعايش والاندماج الايجابي بين أتباع مختلف الأديان. وتمثل فئة من هؤلاء الشباب حفدة مسلمي ومسيحيي كتانيا (وصقلية بوجه عام) الذين كانوا يقيمون بهذه الديار خلال العصر الوسيط كما سنوضح ذلك في الصفحات الموالية.

أولا: التعدد الديني في صقلية

1) المسيحية في صقلية

تمثل المسيحية الكاثوليكية الديانة المتبعة من قبل معظم سكان صقلية منذ ظهورها رغم أنها انتشرت بها في وقت متأخرعن انتشارها في مناطق شمال ايطاليا وفق افادات بعض الباحثين الغربيين[1].

فقد وفدت الى روما منذ العقود الأولى التي تلت ظهورها في الشرق. ولكن المضايقات والملاحقات التي طالت معتنقيها الأوائل، لم تسمح بانتشارها حتى سنة 313 ميلادية، تاريخ صدور مرسوم ميلان الذي أقرها كديانة رسمية. فأضحت روما بعد هذا التاريخ معقل المسيحية بامتياز ومقرا لأكبر المؤسسات التي تمثلها.

[1] - من بينهم على سبيل المثال لا الحصر:

- Robin Lane Fox, Païens et chrétiens : La religion et la vie religieuse dans l'Empire romain de la mort de Commode au Concile de Nicée, traduit par Ruth Alimi, Maurice Montabrut et Emmanue Pailler, Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, 1997.

- Simon Claude Mimouni et Pierre Maraval, Le Christianisme des origines à Constantin, Paris, P.UF., 2006.

- David Engels, "Entre tolérance, désintérêt et exploitation. Les relations christiano-musulmanes en Sicile du IX^e^ au XIII^e^ siècle et leurs racines dans l'histoire religieuse de l'île" , *Cahiers de la Méditerranée*, no 86, 2013, pp. 273-300.

وتبعا لذلك، أخذت تنتشر في المناطق البعيدة عن المركز بما في ذلك صقلية. ولكن انتشارها في هذه الجزيرة اقتصر في البدء على الحواضر. بينما ظلت الأرياف موطنا للوثنية حتى مطلع القرن الخامس للميلاد[1].

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية سنة 476 ميلادية، وانتقال السلطة من روما الى القسطنطينية، أصبحت البابوية مركز السلطتين الدينية والدنيوية في ايطاليا. فظلت تسهر على صون المسيحية وتقوم في الوقت ذاته بفرض الوصاية على المسيحيين. ولذلك اتسع مجال نفوذ الباباوات الذين تعاقبوا على كرسي البابوية منذ هذا التاريخ. وتحولوا من مجرد رهبان ذوي سلطة محدودة في روما الى "أساقفة سامين" تخضع لسلطتهم روما وعدة مناطق في ايطاليا القارية وجزيرة صقلية. ولكن سلطتهم لم تشمل مجالا أوسع ولم تستمر لفترة أطول. لأنهم اصطدموا بالقوط الشرقيين الذين سيطروا على صقلية ابتداء من سنة 491 ميلادية وباللومبارديين الذين قاموا بغزو منطقة لومبارديا وبعض مناطق وسط وجنوب ايطاليا ابتداء من سنة 568 ميلادية.

وكان من الممكن أن تتقلص مساحة انتشار المسيحية بصقلية بعد سيطرة القوط الشرقيين عليها. ولكن ذلك لم يحدث بما أن هؤلاء تخلوا عن الوثنية واعتنقوا المسيحية. واتخذها ملوكهم ديانة رسمية على غرار جيرانهم اللومبارديين وكذلك على غرار القوط الغربيين الذين استولوا على شبه جزيرة ايبيريا والفرنجة الذين حكموا غالة (فرنسا).

وابتداء من سنة 535 ميلادية، نجح البيزنطيون في ضم صقلية ومنطقتي بوليا (Puglia) وكلابريا (Calabria) ومناطق أخرى الى امبراطوريتهم بعد سلسلة حروب خاضوها ضد القوط الشرقيين وضد الغزاة الجرمان الذين كانوا يسيطرون على المناطق المتوسطية التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية قبل سقوطها. ورغم ذلك، ظل للبابوية حضور قوي في صقلية البيزنطية. فكان أسقف بلرم يشرف على الشؤون الدينية نيابة عن البابا. بل الأكثر من ذلك أن البابوية استطاعت ترسيخ الكاثوليكية بالجزيرة من خلال تشييد مجموعة موناستيرات في بلرم وفي غيرها من الحواضر.

---

[1] - أنظر في هذا الشأن:

- Giuseppe Agnello, "Stato presente degli studi di archeologia cristiana in Sicilia" SicGymnasium, no 2, 1949, pp. 242-260.

ولكن سيادة الكاثوليكية بالجزيرة "انتهت" ابتداء من سنة 732 ميلادية، حين قرر الامبراطور البيزنطي ليو الثالث (Léon III) وضع أسقفية بلرم وجميع المؤسسات الدينية في صقلية تحت اشراف كنيسة القسطنطينية[1]. فشكل ذلك منعطفا في مسيرة المسيحية الكاثوليكية بصقلية. لأن الشعائر أصبحت تقام في كنائسها وأسقفياتها وفق المسيحية الأورثوذوكسية. وأصبحت تؤدى باللغة الاغريقية، التي كانت تمثل اللغة الرسمية في الامبراطورية البيزنطية. ويعد هذا التحول في صقلية وفي المناطق الايطالية الأخرى التي كان يسيطر عليها البيزنطيون، مظهرا من مظاهر الشرخ الذي شهدته المسيحية بعد انقسام أوربا الى قسمين. فأضحت المسيحية موضوع تجاذب بين كنيسة القسطنطينية وبابوية روما. ولذلك ظل الأباطرة البيزنطيون وكبار رجال الدين حريصين، منذ ثلاثينيات القرن الثامن للميلاد، على ان تتم ممارسة الشعائر والطقوس الجماعية والاحتفالات الدينية بطريقة تتماشى مع التعاليم الأرثوذكسية. وكانوا لا يكلون من مراقبة مجريات تطبيق هذه الاجراءات رغم المسافة التي تفصل بين القسطنطينية وصقلية.

وتفيدنا أنليز نيف (Annliese Nef) في مقال مطول حول التوزيع الجغرافي للأسقفيات بصقلية النورمانية، بأن الأباطرة البيزنطيين لجأوا لتيسير عملية المراقبة الى وضع جميع اسقفيات الجزيرة تحت اشراف اسقفية سِرقوسة (Siracusa) الواقعة جنوب شرق الجزيرة[2]. وكانت هذه الأسقفية بمثابة مؤسسة دينية "ولائية". ورغم هذا الإجراء، لم تتراجع أهمية كنيسة بلرم التي ظل يرتادها عدد كبير من المسيحيين الكاثوليك منذ نشأتها سنة 592 للميلاد نظرا لكون جناح منها كان مرقدا لقديس مبجل تحدث عنه ابن حوقل[3]. وذكر بأن زوار الكنيسة كانوا يقصدون قبره للتبرك وطلب الشفاء من الأسقام. ونظرا لكثرة الوافدين وما كان يترتب عن ذلك من ازدحام ووقوع

---

[1] - لمزيد من التفاصيل يمكن العودة لمقال:

Vivien Prigent, "La Sicile byzantine, entre papes et empereurs (6ème-8ème siècle)", in Zwischen Ideal und Wirklichkeit: Herrschaft auf Sizilien von der Antike bis zur Frühen Neuzeit, février 2019, pp. 201-214.

[2] - يمكن العودة بهذا الخصوص لمقالها الموسوم ب:

"Géographie religieuse et continuité temporelle dans la Sicile normande (XIe-XIIe siècle) le cas des évêchés", Cahiers d'Études Hispaniques Médiévales, Année 2003, pp. 177-194.

[3] - أبو القاسم محمد بن علي ابن حوقل (توفي سنة 367 هجرية)، كتاب صورة الأرض، دون ذكر اسم المحقق، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت 1992، ص. 113.

البعض تحت الأقدام، تم وضع رفاة القديس في صندوق علق فوق خشبة. وبعد الفتح الاسلامي تم تحويل الكنيسة الى مسجد جامع[1].

وكانت المسيحية عشية انتهاء حكم البيزنطيين لصقلية موزعة بين أورثوذوكسية تتبعها أغلبية مؤلفة من مسيحيين اغريقيين وكاثوليكية تتبعها أقلية مؤلفة من مسيحيين لومبارديين ولاتينيين. وحين آل حكم الجزيرة للأغالبة، ظل المسيحيون الكاثوليك في مواطنهم. بينما هاجر عدد من المسيحيين الاغريقيين الى بعض مدن الامبراطورية البيزنطية ونزح عدد آخر الى منطقة كلابريا. في حين ظل عدد منهم مقيما بالجزيرة .

ويحتمل أن بعض المسيحيين اعتنقوا الاسلام. بينما ظل معظمهم على دينه نظير دفع جزية كما جرى العمل بذلك في الأندلس بعد الفتح. وقد تحدث الإخباري كُفريدوس مَلتيرا (Gaufridus Malaterra)[2] عن تلك الجزية، باسم "tributarii"، بمناسبة حديثه على سيطرة النورمان على بعض القرى الواقعة في ظهير مسينا. وزعم أن المسيحيين رحبوا بمقدم النورمان للتخلص منها[3]. ولم يذكر مع الأسف أنهم كانوا يؤدونها مقابل السماح لهم بممارسة الشعائر والتردد على المؤسسات الدينية بكل حرية. وهذا ما أقر به المؤرخ فليكس إلي دو لا بريمودي (Félix Élie de La Primaudaie) في مؤلف نشره في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر. ذكر فيه أن المسلمين "نكلوا" بمسيحيي سرقوسة الأورثوذوكسيين حين اقتحموا المدينة. واستولوا على بعض ما كانت تكتنزه كنائسها من ذخائر ونفائس. ولكن بعد أن أحكموا السيطرة على صقلية، سمحوا للمسيحيين

---

[1] - نفس المصدر ونفس الصفحة.

[2] - رجل دين واخباري. كان حيا سنة 1112 ميلادية. ينتمي لمقاطعة نورماندیا التي بدأ فيها حياته كراهب على الطريقة البندكتية. ثم هاجر الى صقلية وأخذ ينتقل بين موناستيرات كلابريا وكتانيا. واهتم بالكتابة والتدوين فاتصل بروجر الأول الذي قربه منه. ووضع بأمر منه كتابا تحت عنوان:

De rebus gestis Rogerii Calabriae et Siciliae comitis et Roberti Guiscardi ducis fratris eius.

(أفعال روجر قمط كلابريا وصقلية وأخوه روبير گيسكار)

يتألف الكتاب من أربع "كتب" متسلسلة وفق تتابع الأحداث. ترجم فيه للكونت روجي ولأخيه روبير گيسكار وتحدث عن مراحل زحفهما على رأس النورمان على جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية..توجد النسخة اللاتينية من الكتاب على موقع "المكتبة اللاتينية" (Latin library) على العنوان:
http://www.thelatinlibrary.com/malaterra.htm

وقد اهتم به عدد من الباحثين من بينهم ماري-أنييس لوكاس-افنيل (Marie-Angnès Lucas-Avenel) التي قامت بتحقيق "الكتابين" الأول والثاني وترجمتهما الى الفرنسية ونشرتهما تحت عنوان:

Histoire du grand comte Roger et de son frère Robert Guiscard, Caen, Presses Universitaires de Caen, 2016.

[3] - أنظر النسخة الاتينية من اخباريته، الكتاب الثاني، الفصل الرابع عشر.

الاغريقيين بممارسة الشعائر الدينية وارتياد الأسقفيات والكنائس كما كانوا يفعلون من قبل. بل سمحوا للرهبان والقساوسة بالتجول في أزقة المدن مرتدين الملابس الخاصة بهم[1].

وقد اكدت أنليز نيف (Annliese Nef) هذه الحقيقة ضمنا في المقال المشار اليه سابقا. رغم أنها لم تتحدث عن المآلات التي آلت اليها تلك المؤسسات الدينية خلال الحقبة الاسلامية. ولكن عبارة "الاستمرارية" الواردة في عنوان المقال تفصح بوضوح بأن معظم تلك المؤسسات ظلت قائمة ابان سيادة المسلمين للجزيرة. وظلت تؤدي وظيفتها كما كان الأمر خلال حكم البيزنطيين للجزيرة. وإن التغيير الذي حدث هو أن أسقفية سرقوسة فقدت دورها لصالح كنيسة بلرم التي اصبحت المؤسسة المسيحية الرئيسية. وربما يكون ذلك قد حدث بسبب وجودها في مدينة اتخذت قاعدة للامارة.

وحين انتقل حكم الجزيرة للنورمان، تعززت المسيحية الكاثوليكية، والمؤسسات التي كانت تقام فيها شعائرها، بوفادة جالية رافقت الحكام الجدد. وتلت تلك الوفادة هجرات وحركات تنقل قام بها عدد من مسيحيي شمال ايطاليا ووسطها في اتجاه الجزيرة. فضلا عن عدد من مسيحيي غالة[2]. ورغم ذلك ظل معتنقو المسيحية أقل عددا من معتنقي الاسلام.

ومن المفارقات، أن ديانة الأقلية، أي الكاثوليكية، بدأت تأخذ طريقها نحو الترسيم منذ صيف 1059 ميلادية حين حصل اتفاق بين البابا نيكولا الثاني (Nicolas II) والقائد النورماني روبير كْيسكار. فاكتسبت حركة النورمان مشروعية دينية. وشرع قادتهم منذ هذا التاريخ في اعادة هيكلة المؤسسات المسيحية التي ظلت قائمة وتشييد مؤسسات جديدة.

ويتحدث الإخباري كْفريدوس مَلتيرا (Gaufridus Malaterra) في عدة فصول من إخبارته عن عمليات ترميم بعض الأبرشيات وعن عمليات تشييد

---

[1] - أنظر كتابه:

Les arabes en Sicile et en Italie. Les normands en Sicile et en Italie, Paris, Challamel Ainé, Libraire-Éditeur, 1868, p. 29.

[2] - أنظر عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية تعريب وتقديم أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، القاهرة 1980، ص. 79.

كنائس جديدة قام بها القادة النورمان قبل استكمال السيطرة على صقلية[1].

وتؤكد المراسيم الصادرة عن القمط روجي الأول[2] ما ذهب اليه كْفريدوس مَلتيرا. كما يؤكد هنري بريسك (Henri Bresc) وفرانكو دانجلو (Franco D'Angelo) بدورهما أن القادة النورمان حرصوا منذ أن كانوا أقماطا على انشاء مؤسسات دينية في المناطق النائية. ومن ضمنها مناطق كانت كثافتها السكانية ضعيفة، لاستقطاب الساكنة اليها وكذلك لاستغلال المساحات الصالحة منها للزراعة وترسيخ المسيحية بربوعها[3].

والملاحظ أن أولئك الأقماط حرصوا على اسناد مهمة اعادة هيكلة وتدبير المؤسسات لأساقفة ينحدرون من مقاطعة نورمانديا الغالية (الفرنسية). كما رحبوا بمقدم عدد آخر من مختلف مناطق فرنسا. وقد عرف إريكو كوزو (Ericco Cuozzo) ببعضهم. وذكر بأنهم كانوا بمثابة "نقلة" للتقاليد الفرنسية - اللاتينية في مجال تدبير المؤسسات الدينية وإقامة الشعائر والطقوس على الطريقة الكاثوليكية[4].

والواقع أن المناصب الدينية لم تكن حكرا على رجال الدين الغاليين، بل استطاع كذلك بعض المثقفين وبعض رجال الدين الوافدين من أنجلترا شغل مناصب في المؤسسات الادارية وفي الكنائس النورمانية حسب افادات رالف ڤيكتور تورنير (Ralph Victor Turner)[5].

---

[1] - أنظر النسخة اللاتينية من اخباريته، المنشورة على الموقع السالف الذكر، الكتاب الثاني، الفصل السادس والكتاب الرابع، الفصل السابع. كما يمكن العودة كذلك لكتاب:

Frédéric Joseph Lecat Baron de Bazancourt, Histoire de la Sicile sous la domination des Normands, depuis la conquête de l'ile jusqu'à l'établissement de la monarchie, Paris, Amyot, Libraire-Éditeur, 1846, Tome I, pp. 357-358..

[2] - حققت نماذج كثيرة من هذه المراسيم وغيرها من الوثائق الباحثة جوليا بيكر (Julia Becker) ونشرتها سنة 2013 في كتاب تحت عنوان:

Documenti latini e greci del conte Ruggero I di Calabria e Sicilia, Istituto Storico Germanico di Roma & Viella libreria editrice, Roma.

[3] - أنظر مقالهما:

"Structure et évolution de l'habitat dans la région de Termini Imerese". In: Mélanges de l'École française de Rome. Moyen-Age, Temps modernes, tome 84, n°2. 1972. p. 375.

[4] - لمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص يمكن العودة لمداخلته الموسومة ب:

- "Les évêques d'origine normande en Italie et en Sicile ", in Les évêques normands du XIe siècle, livre dirigé par Pierre Bouet et François Neveux, Caen, Presses Universitaires de Caen,1995, pp. 67-78.

[5] - أنظر مقاله الموسوم ب:

"Les contacts entre l'Angleterre normano-angevine et la Sicile normande" , Études normandes, no 03, 1986, pp. 39-60.

ومن الواضح جدا أن تلك الاجراءات كانت تهدف الى اضفاء الطابع الكاثوليكي-اللاتيني على الحقل الديني، ولذلك حظيت بمباركة البابا أوربان الثاني منذ سنة 1098 ميلادية لأنه رأى أنها ستعيد صقلية الى حظيرة المسيحية الكاثوليكية والثقافة اللاتينية[1]. فواصلوا تبعا لذلك مشروعهم باعادة بعض المساجد الى كنائس كما كانت قبل مقدم المسلمين وبتشييد مؤسسات دينية جديدة من بينها أسقفية أعطى الملك روجر الأول أوامره بتشييدها بمازر (Mazara) سنة 1093 ميلادية. وكاتدرائية كتانيا التي قرر بناءها سنة 1094 ميلادية. وكتدرائية تشيفالو (Cefalù) التي تم الشروع في بنائها من قبل الملك روجر الثاني سنة 1131 ميلادية. وكاتدرائية مونريال (Monreale) التي اشرف على انشائها الملك غليوم الثاني (Guillaume II) بين سنتي 1172 و1176 ميلادية[2].

ولا يخفى أن هذه الاجراءات كانت تؤثر في العمق على مبدإ التسامح الديني والتوازن الذي حاول أولئك القادة ارساءه بين الديانات الثلاث، لأن الأساقفة والرهبان الوافدين من منطقة نورمانديا، ومناطق غالة الأخرى، أخذوا يشيعون في أوساط المسيحيين ثقافة مختلفة وقائمة على التعصب في زمن كان فيه الفكر الصليبي سائدا في كيانات الغرب المسيحي. وكان مسيحيو غالة يمثلون "ذراعه" السياسي والعسكري بامتياز.

وعلى كل، فحتى بداية هيمنة هذا الفكر في صقلية أواخر عهد النورمان، تأرجحت المسيحية التي "استوطنت" هذه الجزيرة منذ وقت مبكر بين كونها ديانة رسمية أو غير رسمية تبعا للقوى السياسة التي حكمت الجزيرة. وقد ظل معتنقوها يمثلون أقلية إبان الحقبتين الاسلامية والنورمانية. وكانوا يتألفون من مسيحيين اغريقيين بتبعون الأورثودوكسية ومسيحيين لاتينيين يتبعون الكاثوليكية. كانت أكثرية هؤلاء من الوافدين. بينما كانت أقلية منهم ذات أصول صقلية. وكانت الى جانبهم فئة من المسيحيين المستعربين.

---

[1] - أنظر مداخلة إريكو كوزو التي سبقت الاحالة عليها. وأنظر كذلك مداخلة سلفاطور فودال (salvator Fodale) الموسومة ب:

"L'église et les normands en Italie du sud et en Sicile", in Les normands en Méditerranée aux XIe-XIIe siècles, ouvrage sous la direction de Pierre Bouet et François Neveux, Caen, Presses Universitaires de Caen, 2001, pp. 171-178.

[2] - عن حيثيات نشأة هذه المؤسسة وعن طبيعة العلاقة التي أصبحت قائمة بين المسلمين والمسيحيين المقيمين في الأراضي التابعة لها، أنظر:

Henri Bercher, Annie Courteaux et Jean Mouton, "Une abbaye latine dans la société musulmane. Monreale au XIIe siècle", Annales E.S.C, 1979, no 34, pp. 525-547.

2) اليهودية في صقلية

يكاد يعود وجود الديانة اليهودية بشبه جزيرة ايطاليا الى فترة سابقة على وجود المسيحية وفق أسطورة تتواترها بعض الأبحاث. مفادها أن نفرا من اليهود كانوا يقيمون بروما منذ مطلع القرن الأول للميلاد. ثم تزايد عددهم نسبيا بعد صيف سنة 70 ميلادية حين سقطت القدس في حوزة الرومان وتم نقل أعداد من اليهود الى روما كسجناء. وسرعان ما نال هؤلاء الأسرى حريتهم ومنحوا بعض الامتيازات. فانتشروا في عدة انحاء من شبه جزيرة ايطاليا، ومن ضمنها صقلية، واخذوا يتكاثرون حتى بلغ عددهم عند متم القرن الأول للميلاد حوالي أربعين ألف نسمة[1].

ولكن الحقيقة المتفق عليها بين معظم الباحثين، هي أن وجود اليهودية بشبه جزيرة ايطاليا يعود للقرن الثاني للميلاد. فقد كانت تدين بها أسر قليلة العدد كانت تقيم بروما خلال هذه الفترة. بينما مثلت بعض حواضر جنوب ايطاليا أهم المراكز التي استقرت بها أسر تدين باليهودية[2].

أما في صقلية، فلم تظهر اليهودية حتى حوالي منتصف القرن الرابع للميلاد وفق إفادات شلومو سيمنسون (Shlomo Simonsohn). الذي يؤكد بأن كتانيا مثلت أولى المراكز الحضرية في الجزيرة التي استقرت بها جالية يهودية قليلة العدد[3].

ويستفاد من اخبارية اليهودي أهيماز بن بلتيل أو بلطيال (Ahimaaz ben Palteil)[4] بأن أسرا يهودية كانت تقيم في أوريا وباري وسرقوسة وأمالفي منذ القرن الثاني للميلاد. وقد كانت تلك الأسر تفضل الاقامة في حواضر الجنوب لأنها كانت تقوم بدور نشيط في المبادلات التجارية التي كانت قائمة بغرب البحر المتوسط.

---

[1] - Élie Barnavi, Histoire universelle des Juifs, Paris, Hachette, 1992.

[2] - خص هذا الجانب هنري بريسك (Henri Bresc) بوقفة مطولة في القسم الثاني، الفصل الرابع من كتابه:
- Arabes de langue, Juifs de religion : L'évolution du judaïsme sicilien dans l'environnement latin,XIIe-XVe siècle, Paris, Éditions Bouchène, 2001.

[3] - Shlomo Simonsohn, The Jews in Sicily, (383-1300), Brill, Leiden-New York-Koln, 1997, Vol. I, p. IX (09).

[4] - شاعر واخباري يهودي من بلدة أوريا بجنوب ايطاليا. توفي حوالي سنة 1060 ميلادية. وضع اخبارية أرخ فيها لأسرته وأفراد عائلته. وتتناول فيها بعض الأحداث التي شهدها جنوب ايطاليا بين سنتي 850 و1054 ميلادية. لا يعتمد الباحثون كثيرا عليها رغم مصداقية ما تتناوله من أحداث نظرا لغلبة الحكايات على مضمونها والطابع الأسطوري على بعض الأحداث التي تتضمنها. قام بتحقيق نصها العبري وترجمته الى الأنجليزية سلزمان ماركوس (Salzman Marcus) ونشره بنيويورك سنة 1924. ثم أعاد روبير بونفيل (Robert Bonfil) تحقيقه وترجمته. ونشر النصين العبري والأنجليزي ضمن كتابه:
History and Folklore in a Medieval Jewish Chronicle, Brill, Leiden/Boston, 2009.

وقد ظل عدد الأسر اليهودية المقيمة في تلك الحواضر مستقرا نسبيا حتى نهاية الوجود البيزنطي. رغم أن سياسة الأباطرة البيزنطيين تجاهها تأرجحت بين الشدة واللين. وقد ساءت خلال عهد ليو الثالث الإساوري (Léon III l'Isaurien) الذي حكم بين سنتي 717 و741 ميلادية.

وقد اكتفى الاخباري أهيماز بن بلتيل في موضوع تلك السياسة بالقول بأن الامبراطور السالف الذكر حاول تنصير اليهود في مختلف المناطق الخاضعة للامبراطورية[1]. في حين ذكر الباحث ريمون جنان (Raymond Janin)[2] بأن ما قام به الامبراطور ليو الثالث يمثل مجرد مظهر من مظاهر سياسة الأباطرة البيزنطيين التي كانت دوما متشددة تجاه اليهود. بحيث لم يكونوا يسمحون لهم بتطبيق شرائع اليهودية. ومن ضمن ذلك على سبيل المثال، أن الرجل كان ممنوعا من التزوج بأكثر من امرأة. وأن القران كان يشترط أن يتم بين أسرتين يهوديتين وأن مراسيم الزواج كانت تتم وفق القوانين العامة السارية المفعول في الامبراطورية.

وبعد أن آلت سيادة صقلية للمسلمين، رحلت اليها أعداد كثيرة من الأسر اليهودية من جنوب ايطاليا ومن غيرها. واستقرت في كتانيا وفي بلرم. ويستشف من حديث ابن حوقل عن أبواب المدينة، بأن بلرم أضحت موطن نسبة مهمة من اليهود بعد فتح صقلية. وانهم كانوا يقيمون في "حارة" نعتها "بحارة اليهود"[3]. شأنهم في ذلك شأن الصقالبة الذين كانوا يقيمون في "حارة الصقالبة" أو عامة المسلمين الذين كانوا يقيمون في حارات اخرى مثل "حارة المسجد" و"الحارة الجديدة" و"حارة أبي جمين".

ويؤكد الرحالة بنيامين التطيلي من جانبه، أن معظم يهود شبه جزيرة ايطاليا كانوا يقيمون خلال القرن التاسع للميلاد بحواضر الجنوب وحواضر صقلية. بينما لم تكن تقيم بجنوة والبندقية سوى أسر قليلة جدا لا يتجاوز عددها أصابع اليد. وفي روما كان عددها أكثر من ذلك بقليل[4].

---

[1] - أنظر اخباريته في كتاب روبير بونفيل السالف الذكر، ص. 270، فقرة 17.

[2] - أنظر مقاله الموسوم ب:

"Les juifs dans l'empire byzantin", Revue des études byzantines, no 93, 1912, pp. 126-133.

[3] - ورد ذكر "حارة اليهود" في الصفحة 116 من كتاب صورة الأرض. وورد ذكر الحارات الأخرى في الصفحتين 114 و116. وقد ذكرناها جميعا بما يفيد بأن تلك التسميات لم تكن لها أية حمولة "عنصرية"...

[4] - رحلة بنيامين التطيلي (561هـ.-569هـ.) (1165م.- 1173م.)، ترجمها عن العبرية وعلق على حواشيها ووضع ملاحقها عزرا حداد، تقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي .2002

ويتضح من المعلومات الواردة في مؤلفه أن الجالية اليهودية المقيمة في حواضر جنوب ايطاليا وصقلية تعززت بعد الفتح الاسلامي بوفادة أسر أخرى من بلاد المغرب والأندلس تعودت على العيش مع المسلمين. كما تعززت بوفادة أسر من مناطق غرب أوربا كانت على اطلاع بسياسة المسلمين تجاه الجاليات اليهودية في دار الاسلام.

ومن المعروف ان مسلمي صقلية أقروا اليهودية كما فعل مسلمو الأندلس. وكان أتباعها يعاملون معاملة حسنة. وظل الأمركذلك خلال حكم النورمان. لأن عددا كبيرا من أفراد الجالية اليهودية ظلوا مقيمين بالجزيرة بعد نهاية الحكم الاسلامي. ولأن عددا آخر من اليهود هاجروا اليها حسب افادات تتضمنها رسالة بعث بها يهودي من بلرم الى أخيه بالقاهرة.

فقد غادر مُرسِلهاُ احدى حواضر افريقية سنة 1150 ميلادية وحط الرحال ببلرم بنية مواصلة السفر الى القاهرة. ولكنه أعجب بالمدينة وبالحركة التجارية النشيطة التي كانت تشهدها. فقرر الاستقرار بها وبعث بتلك الرسالة الى أخيه بالقاهرة يدعوه للالتحاق به. وشجعه على القيام بذلك قائلا: "اذا كنت تفكر في مغادرة القاهرة، فالأفضل أن تأتي الى بلرم. فهنا توابل الشرق عليها اقبال كبير"[1].

وتعززت اليهودية في صقلية أكثر نظرا لتواصل وفادة اليهود اليها خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر والعقود الأولى من القرن الموالي كما يؤكد ذلك كْيسيبي ماندلا (Giusppe Mandalà) الذي خص الموضوع ببحث مطول. ذكر فيه أن عددا مهما من يهود شمال افريقيا ظلوا يهاجرون الى صقلية خلال الفترة المذكورة[2]. وينسجم تأكيده مع ما يقول به روبير بونفيل (Robert Bonfil) الذي يرى أن جالية كثيفة من أتباع الديانة اليهودية كانت تقيم بصفة قارة في صقلية خلافا للمناطق الأخرى من شبه جزيرة ايطاليا. وأن عدد أفراد تلك الجالية ظل يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألف نسمة منذ القرن التاسع حتى نهاية القرن الخامس عشر للميلاد[3].

---

[1] - وردت القولة في احدى الرسائل التي حققها ونشرها شلمو دوڤ كْويتين. (Shelomo Dov Goitein). أنظر عنها:
Abraham Labe Udovitch, "Juifs et Musulmans en Sicile aux XIe-XIIIe siècles: Espace et communication", Hesperis Tamuda, vol. XXXVI, 1999, p. 17.

[2] - عنوان البحث هو: "La migration des juifs du Garbum en Sicile (1239)"

وقد شارك به في كتاب جماعي تحت عنوان:

Maghreb-Italie: Des passeurs médiévaux à l'orientalisme moderne (XIIIe- milieu XXe siècle), Rome Publications de l'École Française de Rome, 2010, pp. 19-46.

[3] - انظر كتابه: .Les juifs d'Italie à l'époque de la Renaissance, Paris, l'Harmattan 1995, p. 23

وعموما، ظلت اليهودية تحظى، خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية، بمكانة لائقة كالإسلام والمسيحية. كما ظل اليهود يؤلفون جالية متجانسة وحريصة على التمسك بهويتها كما يؤكد ذلك هنري بريسك (Henri Bresc)[1]. الذي ينبه في ذات الوقت بأن تمسك أفراد الجالية اليهودية بهويتهم، لا يعني البتة بأنهم كانوا منغلقين على انفسهم. بل يتضح من خلال البحث في التقاليد التي كانوا يتبعونها في الملبس والمأكل والمشرب أو فيما يتعلق بمراسيم الزواج والحفلات وغيرها، أن تلك التقاليد كانت خاضعة للتأثيرات المشرقية؛ مما يعني بأن "مساحة" الهوية كانت شاسعة وأن حدودها كانت فضفاضة[2].

ونؤكد من جانبنا بأن غالبية أفراد الجالية اليهودية كانوا منخرطين في الحياة العامة واشتركوا الى جانب المسلمين والمسيحيين في مختلف الأنشطة الاقتصادية كما سنوضح ذلك لاحقا.

ولا باس من التذكير في هذا السياق بأن المؤرخين القدامى والمحدثين لا يتحدثون عن مضايقة تعرض لها اليهود في بلاد المغرب أو في الأندلس. ولا شك أن الأمر كان كذلك في صقلية. ويكفي أن نشير في هذا الصدد الى أن عددا من اليهود اضطروا لمغادرة الأندلس بعد احتدام الصراع بين المرابطين والمسيحيين واستقروا في بعض ممالك غرب أوربا. ولكنهم لم يحسوا فيها بحسن المعاملة التي تعودوا عليها في الأندلس. فعبر بعض المثقفين منهم عن حنينهم للأندلس كما يؤكد ذلك يان ديجونيات (Yann Dejugnat) الذي استند الى شهادتي موسى بن عزرا وابراهام بن داوود في الموضوع[3].

والظاهر أن الاحساس بسوء المعاملة الذي كان يشعر به يهود ممالك الغرب المسيحي، أخذ يدب أيضا في قلوب يهود صقلية. فأصبحوا يشعرون ابتداء من العقد الثاني من القرن الثالث عشر بأنهم غير مرغوب فيهم أو غير مرحب بهم. ثم أخذت المضايقات والملاحقات تطالهم شيئا فشيئا. وقد زكت تلك المضايقات والملاحقات

---

[1] - أنظر كتابه السالف الذكر، القسم الثاني، الفصل السابع.

[2] - هذا ما يمكن استخلاصه من محتوى الفصل الذي أحلنا عليه.

[3] - أنظر مداخلته الموسومة ب:

"Juda Halévi. Un poète juif au carrefour d'une culture islamique du voyage", in Acteurs des transferts culturels en Méditerranée médiévale, ouvrage collectif sous la direction de Rania Abdellatif, Yassir Benhima, Daniel König et Elisabeth Ruchaud, Oldenbourg Wissenschaftsverlag, 2012, p. 96.

القرارات الصادرة عن المجمع الديني الذي انعقد في لتران (Latran) سنة 1215 ميلادية، والتي نص أحدها على منع اليهود من مزاولة الوظائف العمومية. فاستغل حكام مقاطعة أنجو (Anjou) الفرنسية وحكام اسبانيا تلك القرارات لتطهير صقلية من اليهود. وتواصل بعد ذلك مسلسل التنكيل بهم ليشتد بعد مطلع القرن الرابع عشر. وتبعا لذلك أخذ حضور اليهودية يتراجع بصورة ملحوظة في الجزيرة تبعا لتراجع أعداد معتنقيها حتى حدود متم شهر مارس 1492، تاريخ صدور ظهير الحمراء الذي خير الباقين منهم بين التخلي عن اليهودية واعتناق المسيحية أو مغادرة الجزيرة. فغادرها عدد منهم مجردين من متاعهم. فاتجه بعضهم الى افريقية. بينما اتجه البعض الآخر الى المشرق[1].

3) الإسلام في صقلية

بدأ الإسلام في طرق أبواب صقلية ابتداء من سنة 36 هجرية / 656 ميلادية. حدث ذلك على يد القائد معاوية بن حديج الكندي الذي قاد حملة عليها زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان. وتوالت الحملات عليها بعد ذلك. وقد ساهم أهل افريقية بدور فعال فيها بحكم قرب مواطنهم من هذه االجزيرة.

وازدادت تلك الحملات قوة وأهمية زمن حكم الأغالبة لافريقية. فقد شرعوا في ارساء قواعد كيانهم السياسي ابتداء من سنة 184 هجرية / 800 ميلادية. وحين تنامت قوتهم، أخذ سلطانهم يشمل غرب البحر المتوسط. وأضحوا سادة هذا المجرى المائي والمسيطرين على الملاحة فيه حسب شهادة بعض الباحثين العرب والغربيين[2].

وجسدوا تلك السيادة فعلا بتسيير بضع حملات نحو صقلية لم تحقق الهدف مع الأسف نظرا لمناعة الجزيرة ولأسباب أخرى تتعلق بمستجدات داخل الامارة. ولذلك كان يجب انتظار سنة 212 هجرية / 827 ميلادية. حيث استقر الرأي، في عهد الأمير الأغلبي زيادة الله الأول، على تسيير حملة أكثر تنظيما وفعالية. فانطلق الأسطول الاسلامي من

---

[1] - يمكن العودة في هذا الشأن للنسخة الفرنسية من كتاب وضعه رجل السياسة والمؤرخ الايطالي ايزيدورو لا لوميا (Isidoro La Lumia) في الموضوع:

Histoire de l'expulsion des juifs de Sicile 1492, traduction Michel Valensi, Paris, Éditions Allia, 1992.

[2] - أنظر على سبيل المثال، شوقي أبو خليل، فتح صقلية بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق 1998، ص. 63. وداڤيد براموڵي (David Bramoullé)

Les Fatimides et la mer (909-1171), Leiden, Boston, Brill, 2020, pp. 104-110.

مدينة سوسة تحت امرة العالم الجليل القاضي والقائد أسد بن الفرات الذي "خرج في عشرة آلاف رجل منهم تسعمائة فارس" وفق شهادة القاضي عياض[1]. وانضم اليه عدد من "أشراف افريقية من العرب والجند والبربر والأندلسيين وأهل العلم والبصائر"[2] كما يذكر ابن عذاري. الذي يختلف مع القاضي عياض في عدد الفرسان الذين استنفروا للقيام بالحملة. فيذكر أن الأسطول الذي سخر للقيام بها كان يتألف من "سبعين مركبا" على متنها "سبعمائة فارس"[3]. بينما يذهب أحد الباحثين المعاصرين الى القول بأن الأسطول كان يتألف من حوالي "مائة قطعة على متنها تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل بالإضافة الى ربابنة القطع البحرية"[4]. خاضوا جميعهم وقائع دامية وطويلة الأمد[5]. نجحوا بعدها في السيطرة على كبريات مدن صقلية ومن ضمنها بلرم التي دخلوها في شهر رجب سنة 216 هجرية / غشت831 ميلادية[6]. ولكنهم لم يستطيعوا حسم المعركة لصالحهم بعد هذا النصر. فظلت الحرب سجالا بينهم وبين البيزنطيين عدة سنوات[7]. قدم خلالها المسلمون كثيرا من الشهداء وانضمت اليها قوات اسلامية من افريقية ومن الأندلس. وتمكنوا في نهاية المطاف من احكام سيطرتهم على كبريات حواضر الجزيرة مثل مسينا وسرقوسة.

---

[1] - أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (توفي سنة 544 هجرية)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت 2012، الجزء الأول، ص. 276.

[2] - أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي (توفي بعد سنة 712 هجرية)، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، حققه وضبط نصه وعلق عليه، بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الاسلامي، تونس 2013، المجلد الأول، ص. 143.

[3] - البيان المغرب...، المجلد الأول، ص. 143.

[4] - عزيز أحمد، تاريخ صقلية الاسلامية، مرجع سبق ذكره، ص. 14. وشوقي أبو خليل، المرجع السالف الذكر، ص. 70.

[5] - أنظر مجرياتها عند أبي الحسن علي ابن محمد ابن الأثير (توفي سنة 630 هـ) في كتاب الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت 1987، المجلد الخامس، ص.ص. 437-438.

[6] - مؤلف مجهول (عاش خلال النصف الأول من القرن التاسع للميلاد)، كتاب تاريخ جزيرة صقلية، حققه ونشره ميخائيل أماري (Michele Amari) ضمن مجموعة نصوص نشرها تحت عنوان:

Biblioteca arabo-sicula, versione italiana, Torino e Roma, Ermanno Loescher, 1857, vol. I.

وصدرت نسخته العربية عن دار المثنى ببغداد سنة 1857. وقد أعاد كوزا لوزي (Cozza Luzzi) نشر كتاب تاريخ جزيرة صقلية تحت عنوان:

La cronica siculo-saracena di Cambridge con doppio testo greco con accompagnamento del testo arabico, Palermo, 1890.

[7] - أنظر مؤلف مجهول، كتاب تاريخ جزيرة صقلية الذي احلنا عليه، ص. 25 وما يليها من نسخة كوزا لوزي. وانظر كذلك ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد الخامس، ص. 438.

وشرعوا في التوسع قليلا في بعض مناطق جنوب ايطاليا. وبذلك انضمت صقلية الى حظيرة المسلمين وأضحى الاسلام أحد مكونات المشهد الديني القائم بربوعها.

وقد تعزز وجوده بوفادة عدد من مسلمي المشرق وبلاد المغرب والأندلس الذين انتقلوا للاستقرار بالجزيرة. وتواصلت هجراتهم اليها طيلة ما تبقى من عهد الأغالبة وخلال عهدي الفاطميين والكلبيين. كما تكرس من خلال اقبال عدد من السكان المحليين على اعتناقه كما حدث بالأندلس بعد الفتح.

ومن المؤشرات الدالة على قوة الاسلام بصقلية ابان حكم المسلمين لها، كثرة المساجد ودور العبادة وفق شهادة ابن حوقل الذي زارها سنة 362 هـ./973 م. فذكر أن بمدينة بلرم مسجد جامع فسيح يؤمه لوحده أزيد من "سبعة آلاف رجل"[1]. ناهيك عن المساجد الموجود في الأرباض وعددها يفوق "الثلاثمائة مسجد"[2]. وتلك المنتشرة خارج الأرباض وعددها "مائتي مسجد"[3]. وقد أثار هذا الأمر دهشته. وأقر بأنه لم ير مثل هذا العدد من المساجد في أي مصر من الأمصار باستثناء قرطبة التي لم يزرها وقيل له بأن عدد مساجدها يفوق "الخمسمائة". وأبدى تحفظه من ذلك. بينما أكد أن ما قاله عن مساجد بلرم أتى بعد معاينة عدد كبير منها.

وفضلا عن المساجد، انتشرت بالجزيرة مجموعة كتاتيب كانت تعمل بدورها على نشر مبادئ الاسلام وترسيخها في أوساط الناشئة. وقد أبدى ابن حوقل تعجبه من كثرتها وكثرة "المعلمين" الذين يسهرون على تحفيظ القرآن لمريديها. فذكر أن عدد أولئك المعلمين يبلغ في مدينة بلرم وحدها "ما يقارب الثلاثمائة"[4]. ومعنى ذلك أن عدد الكتاتيب قد يكون مثل عدد المعلمين أو أقل نسبيا.

ولكن لم يقدر للمسلمين الاستمرار طويلا في حكم صقلية. فقد انتزعها منهم النورمان. وكان من الممكن أن يؤدي ذلك الى اضمحلال الاسلام وتقلص مساحة انتشاره بها كما حدث في الأندلس بعد انطلاق حركة الاسترداد المسيحي. ولكن النورمان الذين كانوا أقل عددا من المسلمين والذين كانوا بدورهم غرباء عن الجزيرة، مالوا في بداية عهدهم الى الحفاظ على الوضع الديني كما كان قبل بداية حكمهم. فلم يغالوا في تنصير

---

[1] - كتاب صورة الأرض، ص. 114.

[2] - كتاب صورة الأرض، ص. 115.

[3] - نفس المصدر ونفس الصفحة.

[4] - نفس المصدر، ص. 120.

الأمصار. كما لم يرغموا غير المسيحيين على التخلي عن معتقاداتهم. بل قربوا بعض المسلمين منهم منذ عهد روجر الثاني نظرا لحاجتهم اليهم.

وحين زار ابن جبير الجزيرة سنة 580 هـ./1185 م. تعجب من استمرار بعض مظاهر الاسلام في بلاط النورمان. فقال في حق الملك غليوم الذي كان يحكمها آنذاك: "وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين الذين اتخذ منهم "عبيدا" و"فتيانا"[1]. وتعجب كذلك من اتخاذه "لعلامة" تنص على حمد الله حق حمده[2].

ونعتقد بأن مسألة اتخاذ الملك النورماني لإحدى عبارات القرآن علامة أو تقريبه لجماعة من المسلمين، ليس معناه أن حضور الاسلام كان قويا بالبلاط وأن مساحة انتشاره بصقلية كانت شاسعة كما كان الأمر ابان أوج الوجود الاسلامي بها. وقد أورد ابن جبير في رحلته ما يؤكد هذه الحقيقة. حيث تحدث عن عدة مظاهر تفيد بأن بلرم وسرقوسة كانتا تمثلان أهم مراكز الوجود الاسلامي حين زار الجزيرة. وعلى العكس من ذلك لاحظ أن مدينة مسينا لا يقيم بها الا "نفر يسير من المسلمين"[3]. و"لذلك يستوحش بها المسلم الغريب"[4]. كما أورد اشارات أخرى تفيد بتراجع قوة الاسلام بالجزيرة. منها على سبيل المثال أن عددا من مسلمي بلرم، بمن فيهم بعض المقربين من الملك، كان يمتلكهم الخوف. وكانوا "كاتمين لإيمانهم" متمسكين بعبادة الله وأداء فرائضه سرا وأن خطبة الجمعة كانت محظورة في المساجد[5].

ولاحظ أن وجود المسيحيين والمؤسسات المسيحية كان لافتا للانتباه في شفولدي (تشفالو) وثرمة. وفضلا عن كل هذا وذاك، تحدث عن الرقابة التي كانت مفروضة على الزوار، بمن فيهم المسلمين. فذكر أنه ورفاقه كانوا يتجولون في الحواضر تحت رقابة "عيون مختصة". وقد تم اقتيادهم بين يدي "المستخلف" الذي سألهم عن مقصدهم وأسباب زيارتهم[6].

---

[1] - ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (توفي سنة 614 هـ)، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، المعروف برحلة ابن جبير، تحقيق لجنة احياء التراث، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، دون ذكر تاريخ النشر، ص. 267..

[2] - نفس المصدر، ونفس الصفحة..

[3] - نفس المصدر، ص. 266.

[4] - نفس المصدر ونفس الصفحة.

[5] - نفسه، ص. 268 وص. 273.

[6] - أنظر.نص الرحلة، ص.ص. 271-172.

ورغم أن الاسلام فقد جانبا من قوة حضوره في صقلية بعد أن آل حكمها للنورمان، ظل يعتنقه عدد كبير من سكانها حتى العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر. ويمكن القول في ضوء ذلك، بأن هذه الجزيرة تميزت عن الأندلس في كون الديانات الثلاث ظلت قائمة بها دون أن يقصي من تعاقب على حكمها، من مسلمين أو مسيحيين، هذا الدين أو ذاك. وبذلك نجحوا في أن تظل حاضنة لمختلف الديانات السماوية طيلة قرون. ويجمع الباحثون العرب والغربيون المعاصرون بأنها تفردت في هذا الأمر عن سائر بقاع العالم القديم.

ثانيا: التنوع اللغوي والثقافي

تميزت صقلية بكونها كانت موطن التنوع اللغوي والثقافي منذ حكم البيزنطيين لها. فقد كان سكانها موزعين بين كتلتين: كتلة أولى تمثل الأغلبية العددية. تتألف من المسيحيين الاغريقيين الذين كانوا يتبنون الثقافة الهلنستية ويكتبون باللغة الاغريقية ويتحدثون بلهجة متفرعة عنها. ويندرج ضمن هذه الكتلة اليهود الذين كانوا يستعملون الاغريقية بدورهم[1]. وكتلة ثانية تمثل الأقلية. تتألف من عدد قليل من المسيحيين اللومبارديين والمسيحيين المنحدرين من أصول قوطية أو رومانية. وكانوا يتبنون الثقافة الكاثوليكية. كان مثقفوهم يستعملون اللاتينية. وكان عامة الناس يتحدثون العامية المتفرعة عنها.

وازداد هذا التنوع ثراء بعد انتقال حكم الجزيرة للمسلمين. وبلغ مداه زمن حكم النورمان. وتتضح أهمية هذا الثراء اذا علمنا بأن الجزيرة أصبح يقطنها، منذ بداية حكم الأغالبة، عدد كبير من السكان المنحدرين من مختلف الأعراق. وهذا ما لاحظه الراهب ثيودوسيوس السرقوسي (Theodosius of Syracuse)[2].

---

[1] - لمزيد من التفاصيل، يمكن العودة للمؤلف الجماعي:

Jews in Byzantium. Dialectics of minority and majority cultures, Edited by Robert Bonfil, Oded Irshai, Guy G. Stroumsa, Rina Talgam, Brill, Leiden-Boston, 2012.

[2] - لا يعرف عنه الكثير سوى كونه كان راهبا بمدينة سرقوسة زمن استيلاء المسلمين عليها. وأنه وضع "ديوان شعر" (تراتيل) بالاغريقية ورسالة بعث بها من سجن بلرم الى رجل دين يدعى ليون (Léon) كان نائبا لأسقف كنيستها. تحدث في قسم منها عن مراحل حصار المسلمين لمدينة سرقوسة. وعن أوضاع سكانها من جراء الحصار وعن مصيرهم بعد اقتحام المسلمين لها. وتحدث في قسم آخر منها عن عملية اعتقاله ونقله رفقة أسرى آخرين الى بلرم . كما تحدث عن ظروف اقامتهم بسجن المدينة.

فقد وقع في الأسر بعد سقوط سرقوسة في حوزة المسلمين في رمضان 264 هجرية / مايو 878 ميلادية. ثم اقتيد مع مجموعة أسرى الى بلرم. وهبت جموع غفيرة من السكان لمعاينة الموكب. فذكر بعد دخول الموكب الى المدينة وعبور بعض أزقتها بأن بلرم "مدينة شهيرة مكتظة بالسكان من مختلف الآفاق"[1].

وبعد انصرام قرابة قرن على هذا الحدث، زار ابن حوقل المدينة، فلاحظ بدوره أنها معمورة وآهلة بالسكان من خلال وصفه لها بكونها مدينة "كبرى" ووصفه لبعض حاراتها بكونها حارات "كبرى". وكذلك من خلال ملاحظته بأن مسلميها كثر وأن مسجدها الجامع فسيح. و"يدل على قدرهم وعددهم صفة مسجدهم الجامع الذي يتسع لعدد كبير من المصلين"[2].

وقد انطلق ميخائيل أماري (Michele Amari) من ملاحظات ابن حوقل الانطباعية ومن المعطيات الرقمية التي أوردها حول عدد الدكاكين ببلرم وكذلك من المعطيات الرقمية التي يتضمنها جدول احصائيات سكان ايطاليا عند نهاية القرن التاسع عشر، فاستنتج بأن عدد سكان بلرم كان يتجاوز قليلا ثلاثمائة ألف نسمة حوالي سنة 350 هجرية / 961 ميلادية[3].

وان الذي يهمنا فيما يتعلق بالتنوع اللغوي والثقافي، هو أن هؤلاء السكان، الذين كان معظمهم مستقرا في بلرم وكانت أعداد أخرى منهم مستقرة في الحواضر

---

[1] - ورد قوله في الرسالة المشار اليها. وقد كتبها باللغة الاغريقية وتمت ترجمتها الى اللاتينية منذ أوئل القرن التاسع عشر. كما استغل المعلومات الواردة فيها عدد من الباحثين من بينهم ميخائيل أماري. وقام باحثون آخرون بترجمتها الى اللغات الأوربية الحديثة من بينهم سيزار فمان (César Famin) الذي ترجمها الى الفرنسية وأدرجها ضمن الجزء الأول من كتابه:

Histoire des invasions des sarrazins en Italie du VIIe au XIe siècle, Paris, Librairie de Firmin Didot frères 1843, Tome I, pp. 348-371.

وفرنسيس ماريون كراوفورد (Françis Marion Crawford) الذي أدرج نصها مترجما الى النجليزية ضمن الجزء الثاني من كتابه:

A history of southern Italy: The rulers of the south, New York and London, MacMillan & Co. Ltd, 1900. Vol. II, chapter II.

[2] - أنظر هذه المعطيات في كتابه صورة الأرض، ص. 114.

[3] - Michele Amari, Description de Palerme au milieu du Xe siècle de l'ère vulgaire par Ebn- Haucal, Paris, Imprimerie Royale 1845, pp. 35-36, note 09.

الأخرى وفي بعض القرى الريفية، كانوا يمثلون مختلف الأجناس والأعراق والثقافات. وتبعا لذلك كانوا يستعملون عند الكتابة عدة لغات ويتحدثون بعدة لهجات.

ويمكن القول عموما بأن اللغات العالمة، أي لغات المثقفين، كانت منحصرة في العربية والاغريقية واللاتينية. بينما كانت لهجات عامة الناس كثيرة ومتنوعة.

ولتوضيح هذا الأمر، نشير بدءا قبل أي تفصيل الى أن مستعملي اللغة العربية كانوا يشكلون غالبية السكان. ولكنهم كانوا يتألفون من قبائل عربية وقبائل بربرية وعناصر فارسية وصقلبية وسودانية. وانضمت اليهم بعد الفتح عناصر محلية بعضها اعتنق الاسلام وتبنى اللغة العربية وبعضها ظل على دينه وتبنى اللغة العربية. كما انضم اليهم اليهود الذين أضحى معظمهم يتحدث باللغة العربية. وكان بعضهم يتحدث لدواعي عملية باللغة الإغريقية أو اللاتينية أو باللغتين معا.

وكان المسيحيون يشكلون بدورهم قوة اجتماعية فاعلة. ولكنهم كانوا يتألفون بدورهم من مسيحيين يستعملون اللغة الاغريقية بشقيها العالم والعامي ومسيحيين يتبنون اللغة اللاتينية بشقيها العالم والعامي.

1) الناطقون باللغة العربية

أ) العرب

شكل العرب الأغلبية العددية منذ السنوات الأولى التي تلت فتح الجزيرة. وكانوا يتألفون من شاميين وعدنانيين وقحطانيين وهمدانيين وكلبيين[1]. قدموا الى الجزيرة من بلاد المغرب والأندلس ومن المشرق.

وقد كان العامة منهم يتحدثون بالعامية العربية المتفرعة عن اللغة العربية، شأنهم في ذلك شأن عامة الناس من العرب في إفريقية أو في الأندلس[2]. وكان المتعلمون منهم يكتبون بلغة القرآن باعتبارها لغة الثقافة والأدب وباعتبارها اللغة الرسمية المعتمدة في البلاط والدواوين منذ بداية الحكم الاسلامي لصقلية.

[1] - احسان عباس، العرب في صقلية. دراسة في الأدب والتاريخ، دار الثقافة، بيروت 1975، ص. 65.

[2] - يمكن العودة في هذا الشأن الى كتاب أحمد هيكل،الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة 1985، ص. .49

وتجسدت هيمنة اللغة العربية على المشهد اللغوي وكذلك هيمنة العناصر العربية على اللغة المتداولة في صقلية خلال حكم المسلمين في كون المصنفات التي يتألف منها تراث هذه الحقبة مكتوبة باللغة العربية وتطغى الأسماء العربية على واضعيها. ويمكن التحقق من ذلك مثلا بالعودة الى ما تم تأليفه في حقل الأدب شعره ونثره أو الى ما تم وضعه من مؤلفات في حقل العلوم الدينية كالحديث والفقه وعلم القراءات وما الى ذلك.

ب) البربر

شكل البربر الفئة الثانية من الناحية العددية. وكانوا يتألفون من كتاميين وزناتيين ولواتيين وغيرهم. قدم معظمهم من افريقية ومن بلاد المغرب بوجه عام. وكان لهم وجود قوي بالجزيرة حسب افادات مؤلف "كتاب تاريخ جزيرة صقلية" الذي يتحدث عن النزاعات التي كانت تنشب بينهم وبين الجند من حين لآخر[1].

ومن المعلوم أن بربر افريقية شاركوا في مختلف الحملات التي تم تسييرها نحو صقلية منذ وقت مبكر نظرا لقرب مواطنهم منها. وانضموا بقوة للحملات التي قام بها الأغالبة. وقامت احدى قبائلهم، وهي كتامة، بدور حاسم في سيطرة الفاطميين على الجزيرة. ويؤكد موسى لقبال في هذا الشأن بأن نشاط الفاطميين في جنوب ايطاليا وجزر البحر المتوسط "كان ثمرة للجهود المخلصة التي بذلها جند كتامة وحلفاؤهم"[2]. فلا غرو اذا وجدنا الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي يسند ولاية صقلية لأحد أعيان كتامة وهو الحسن بن أحمد بن أبي خنزير الكتامي.

وقد شاركت القبائل البربرية في فتح صقلية وفي تدبير شؤونها تحت لواء الاسلام الذي اعتنقته ولغة القرآن التي تبنتها منذ الفتح الاسلامي لبلاد المغرب. ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن تلك القبائل احتفظت بلهجتها التي كانت تستعمل في الجلسات الخاصة أو في المناسبات على سبيل المثال.

---

[1] - أنظر كتاب تاريخ جزيرة صقلية لمؤلف مجهول، ص. 35 وص. 37 من نسخة كوزا لوزي. وكذلك احسان عباس، العرب في صقلية، ص. 65.

[2] - أنظر كتابه، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيها الى منتصف القرن الخامس الهجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون ذكر تاريخ الطبع، ص. 393.

نقول بذلك رغم أننا لا نتوفر على قرائن تؤكده. ولكن لا بأس من التذكير في هذا المقام أن بربر الأندلس ظلوا يستعملون لهجتهم الخاصة حتى فترات متأخرة من الوجود الاسلامي بهذه الديار. وقد عبر ابن حزم بوضوح ودقة متناهية عن هذه الظاهرة حين قال بأن "من سمع لغة أهل فحص البلوط [وكانوا من البربر] وهي على ليلة واحدة من قرطبة، كاد أن يقول أنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة"[1]. ولا شك أن تداولها على هذا النحو هو ما يفسر وجود بعض الكلمات البربرية في بعض المؤلفات وفي بعض الموشحات والنصوص الزجلية والنصوص التي تتضمن ما قالته العامة من أمثال.

ورغم أن عدة مواقع في صقلية حملت أسماء بربرية، وخاصة في المناطق التي كان يتواجد بها البربر بكثافة حسب افادات احسان عباس[2]، فمن المحتمل أن مجال استعمال اللهجة البربرية في الجزيرة كان محدودا لأن الوجود الاسلامي بها لم يدم فترة طويلة كما حدث في الأندلس. ولأن المؤلفات القليلة التي تؤلف المكتبة الصقلية، لا تتضمن مؤشرات تفيد بأن اللهجة البربرية كانت مستعملة على نطاق واسع.

وعلى كل، ففي صقلية كما في الأندلس، تبنى المثقفون من أصول بربرية اللغة العربية في مؤلفاتهم الأدبية والفقهية. وشاركوا في الحركة الثقافية التي شهدتها الجزيرة منذ الفتح والاستقرار رغم أن كتب التراجم والدراسات الحديثة لا تورد اسماء كثيرة لأعلام بربر منتسبين لقبائلهم كما هو الشأن مثلا بالنسبة للفقيه الشاعر أبي حفص عمر بن مازوز بن خليل اللواتي[3]. وربما يعود ذلك لتلاشي الانتماء للقبيلة الذي أخذ يحل محله الانتماء للمصر كما يذكر احسان عباس. ولذلك شاعت ألقاب من قبيل "الصقلي" و"السرقوسي" و"الاطرابنشي" و"المازري"[4].

ولكن العرب والبربر، الذين كانوا يشكلون غالبية سكان صقلية والذين كانوا يمثلون غالبية مستعملي اللغة العربية وعنهم تعلمها مستعربو صقلية، كانوا موزعين بين أغلبية سنية وأقلية شيعية وبين مالكيين وحنفيين. وكأن شبه جزيرة ايطاليا ومن

---

[1] - أبو محمد على بن أحمد ابن حزم الأندلسي (توفي سنة 456 هـ)، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق الشيخ محمد أحمد شاكر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983، الجزء الأول، ص. 31.

[2] - أنظر كتابه، العرب في صقلية، ص. 66.

[3] - أنظر عنه كتاب الدرة الخطيرة لشعراء الجزيرة لأبي القاسم جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القطاع (المتوفى سنة 515 هـ)، جمع وتحقيق بشير البكوش، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1995، ص.ص. 154-155.

[4] - أنظر كتاب العرب في صقلية، مرجع سبق ذكره، ص. 177.

ضمنها صقلية، قدر لها أن تكون مجال تجاذب بين المسيحية الكاثوليكية والمسيحية الأرثوذوكسية وكذلك مجال تجاذب بين المذهب السني والمذهب الشيعي وبين المالكية والحنفية. رغم أن التجاذب المذهبي كان أقل حدة في صقلية مما كان عليه في افريقية.

ومن المفيد الإشارة في هذا الصدد، الى أن المذهب الشيعي وجد في الفاطميين أقوى معتنقيه في بلاد المغرب. وقد سعوا لنشره بالأندلس ولكنهم فشلوا في ذلك. بينما وجد موطا قدم له في صقلية لأنهم حكموها ولأنها كانت تمثل قاعدة استراتيجية في مشروعهم "الجهادي". فوضعوها بين يدي الأسرة الكلبية التي أضحت تمثل أقوى ممثليهم بها. وقد تولى بعض اعيان هذه الأسرة حكم الجزيرة. وساندهم كثير من العامة وانضم اليهم بعض كتاب الانشاء وأهل الدواوين ووجوه صقلية[1].

ولا شك أن التشيع وجد في الفقهاء من نشر مبادئه. وقد وجد في الشعراء من رفع لواءه كابن الطوبي على سبيل المثال[2].

وتوزع العرب والبربر وسائر مسلمي صقلية أيضا، بين متبع للمذهب الحنفي ومتبع للمذهب المالكي على غرار ما كان حاصلا في افريقية. لأن الأغالبة لم يحسموا منذ قيام دولتهم في المذهب الواجب اتباعه. فكانوا يتبعون المذهب الحنفي. ولكنهم لم يغلقوا أبواب القيروان أمام فقهاء المالكية الذين وفدوا اليها بكثرة. فأضحت مساجدها ميدان مجادلات ومناظرات بين فقهاء المذهبين. ويبدو أن أثر المالكية بات واضحا في بعض الفترات حتى أن أحد أقطابه، وهو أسد بن الفرات، تولى منصب القضاء، زمن حكم ابراهيم بن الأغلب، الى جانب قاض حنفي هو محمد بن بنعبد الله بن قيس الكلاني. وظل هذا الوضع قائما حتى خروج أسد بن الفرات لفتح صقلية. فتعجب صاحب "طبقات علماء افريقية" لوجود قاضيين من مذهبين مختلفين في مصر واحد[3].

ولا شك أن هذا الوضع كان شكلا من اشكال التعايش بين المذاهب الفقهية في افريقية. وهذا ما عبر عنه المقدسي بقوله: "لا ترى اكثر من مدنها ولا أرفق من أهلها ليس

---

[1] - احسان عباس، العرب في صقلية، مرجع سبق ذكره، ص. 45.

[2] - أنظر عبد الرزاق حسين، الأدب العربي في صقلية، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان 2013، ص. 254.

[3] - أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الافريقي (توفي سنة 333 هجرية)، طبقات علماء افريقية وكتاب طبقات علماء تونس، دون ذكر اسم المحقق، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دون ذكر تاريخ النشر، ص. 84. .

غير حنفي ومالكي، مع ألفة عجيبة. لا شغب بينهم ولا عصبية. لا جرم انهم على نور من ربهم قد اقبلوا على ما يعينهم. وارتفع الغل من قلوبهم"[1].

وحين أضحت صقلية خاضعة للأغالبة، عين أمراء افرقية علماء لتولي شؤون القضاء بها. وكان بعضهم من المالكيين كعبد الله بن حمدون الكلبي المتوفى سنة 270 هجرية ودعامة بن محمد المتوفى سنة 297 هجرية. كما برز فيها عدد كبير من العلماء المالكيين في علم الفقه والحديث والقراءات وما الى ذلك. بعضهم من أبناء الجزيرة وبعضهم من الوافدين إليها. وهذا ما يدفع الى القول بأن صقلية وقعت بدورها تحت تأثير مذهب مالك. ومن المرجح أن يكون عدد من خاصة وعامة أهلها قد اتبعوه. بينما ظل عدد آخر منهم متبعا للمذهب الحنفي. وربما هذا ما يبرر ما ذهب اليه المقدسي حين ذكر بأن "أكثر أهل صقلية حنيفيون"[2].

ويبدو أن عدم اليقين بخصوص طبيعة المذهب السائد في صقلية، مرده الى أمرين: الأمر الأول يتمثل في كون الأغالبة ظلوا يتأرجحون بين المذهبين كما ذكرنا فيما مضى. والأمر الثاني يتمثل في كون الفاطميين من بعدهم حاربوا المذهب المالكي. ولذلك، ظلت صقلية التي دانت للأغالبة وللفاطميين تتأرجح هي الأخرى بين المذهبين حتى حصلت الغلبة فيها لمذهب مالك.

ومما لا شك فيه أن القضايا المذهبية وقضايا العقيدة بشكل عام استأثرت باهتمام الفقهاء الذين خصصوا لها مباحث في مؤلفاتهم. كما كان لها صدى في قصائد بعض الشعراء[3].

ت) العناصر الفارسية والسودانية والصقلبية

شاركت في عمليات الفتح والاستقرار عناصر فارسية وأخرى سودانية كما ذكرنا فيما مضى. لا نملك عنها الا اشارات قليلة. فبخصوص العناصر الفارسية، نقل احسان

---

[1] - أبو عبد الله محمد بن احمد المقدسي (توفي سنة 380 هجرية)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دون ذكر اسم المحقق، دار مدبولي، القاهرة 1991، ص. 225.

[2] - أحسن التقاسيم، ص. 238.

[3] - أنظر أسامة اختيار، الشعر العربي في جزيرة صقلية. اتجاهاته وخصائصه الفنية، منشورات وزارة الثقافة والهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2008، ص. 59.

عباس عن ميشال أماري قوله أن "معظم الجند الذي خرج تحت امرة أسد بن الفرات كان مؤلفا من الخرسانيين"[1]. ويبدو هذا الأمر منطقيا في اعتقادنا لاعتبارين:

أولا لأن عدد الجنود الخرسانيين المرابطين في افريقية كانوا كثيري العدد منذ أمد؛ اذ يفيدنا بشير رمضان التليسي في هذا الشأن أن عددا كبيرا من الجنود الخرسانيين شاركوا في فتح بلاد المغرب[2]. وأن المهلبيين قدموا الى افريقية على رأس جيش قوامه "ثلاثون ألف جندي خرساني". وقد اصطحبوا معهم أفراد أسرهم. وأقام معظمهم في القيروان[3].

ثانيا لأن القائد أسد بن الفرات خرساني الأصل. ومن الطبيعي أن ينضم اليه جنود خرسانيون وأن يطمئن بدوره اليهم.

ورغم ذلك، ننبه بأن ما أوردناه عن الباحثين المذكورين لا يفيد بأننا نعتقد بأن عدد العناصر الخرسانية التي شاركت في فتح صقلية واستقرت بها، كان كبيرا. لأن ابن حوقل لم يتحدث عن حارة خاصة بهم في سياق ما ذكره عن حارات بلرم.

أما بخصوص العناصر السودانية، فقد ذكر الراهب ثيودوسيوس أن الموكب الذي نقل الأسرى من سرقوسة الى بلرم كان يضم عناصر من "الاثيوبيين الأشداء"[4] أي من الأفارقة. ومعنى ذلك أن عددا مهما من الجنود السودانيين شارك في الحملة التي أفضت الى سيطرة المسلمين على صقلية. وقد أشار اليهم ابن حوقل بوصفهم من سكان الحاضرة بلرم دون أن ينعت حارتهم بالاسم حين ذكر وجود باب باسمهم: "باب السودان"[5] الواقع في اتجاه "باب الحدادين". مما يفيد بكونهم كانوا يمثلون نسبة مهمة من بين العناصر المسلمة.

وفضلا عن هذه العناصر، انضمت الى القوات الداعمة لعملية استقرار الوجود الاسلامي بصقلية خلال عهد الفاطميين، عناصر من الصقالبة. لا نملك فكرة حول عددهم. والراجح أنهم كانوا أكثر من السودانيين ومن الخرسانيين حسبما يستشف مما

---

[1] - أنظر كتابه العرب في صقلية.، مرجع سبقت الاحالة عليه، ص. 33.

[2] - أنظر كتابه، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الاسلامي خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، دار المدار الاسلامي، بيروت 2003، ص. 225.

[3] - نفس المرجع ونفس الصفحة.

[4] - أنظر الترجمة الفرنسية من رسالته الواردة في كتاب سيزار فمان (César Famin) الذي سبقت الاحالة عليه.

[5] - أنظر كتاب صورة الأرض، ص. 116.

أورده ابن حوقل عن حارات بلرم وعن سكانها. فقد ذكر بأن الصقالبة كانوا يقيمون في "حارة عامرة ليس عليها سور"[1].

ومن المؤكد أن جميع العناصر السالف ذكرها تبنت ثقافة الاسلام ولغة القرآن. ولكننا لا نعلم شيئا عن اللهجات التي كانت تستعملها.

ث) المسيحيون المعتنقون للاسلام

كانت هذه الفئة تتألف من مسيحيين من أصول اغريقية ومسيحيين من أصول لاتينية. اعتنقوا الاسلام وتبنوا ثقافته وتعلموا لغة القرآن الى جانب لغاتهم الاغريقية واللاتينية واللهجات المتفرعة عنها. وهم الذين ينعتهم صاحب كتاب "تاريخ صقلية" "بالصقليين". وهي نفس التسمية التي يستعملها كُفريدوس ملترا (Gaufridus Malaterra) بدوره "Siciliencibus" [2].

لا نملك معلومات عن عددهم ولا عن دورهم السياسي ولا عن ثقلهم في الوسط الاجتماعي زمن حكم المسلمين لصقلية.

ومن المحتمل جدا أن بعض من اعتنقوا الاسلام منهم انخرطوا في سلك الجندية وأصبحوا من أشد المدافعين عن الاسلام كما حدث في الأندلس. ومن المحتمل أيضا أن نفرا من مثقفيهم التحقوا بدواوين الامارة ودواليبها. وكانوا يقومون بدور الوسيط بين المسلمين وعموم المسيحيين الذين ظلوا محتفظين بدينهم ولغتهم.

نطرح هذين الاحتمالين انطلاقا من اشارتين وردتا في رسالة الراهب ثيودوسيوس.

أولاهما أن سرية من المسلمين اتجهت صوب كاتدرائية سرقوسة بعد اقتحام المسلمين للمدينة. وكان يوجد بداخلها الأسقف والراهب ثيودوسيوس واثنين من رجال الدين. كانوا يقيمون قداسا طلبا من الله تعالى انقاذ المدينة[3].

يذكر ثيودوسيوس أن أفراد السرية توقفوا عند مدخل قاعة الكتدرائية باستثناء أحدهم ولجها. فأنهى رجال الدين القداس بسرعة عند مقدمه وتحصنوا بالمذبح العالي

---

[1] - كتاب صورة الأرض، ص. 114.

[2] - أنظر اخبارية ملترا، النسخة اللاتينية، الكتاب الثاني، الفصل الثالث والثلاثين. ومؤرخ مجهول، كتاب تاريخ صقلية، في مواضع متفرقة.

[3] - أنظر نص الرسالة، النسخة الفرنسية التي يتضمنها كتاب سيزار فمان (César Famin)، ص. 361.

للكتدرائية (le maitre autel). فاتجه نحوهم شاهرا سيفه واستطاع التعرف على الأسقف من خلال هيئته. فتوجه اليه بالخطاب. يذكر ثيودوسيوس في هذا المقام أن الرجل "سأله بلغة سليمة وبكل لطف دون استعمال كلمات نابية. هل أنت الأسقف ؟"[1]

ثانيهما أن الراهب ثيودوسيوس مثل بين يدي والي صقلية بعد أن قضى خمسة أيام في سجن بلرم. فطرح عليه الوالي سلسلة أسئلة أجاب عنها. وبدت تلك الأسئلة واجوبتها في صيغة "مناظرة" دينية بين الرجلين. ومن المرجح أن شخصا ما تكلف بمهمة ترجمة الحوار[2]. وكان على دراية بطبيعة الحال باللغتين العربية والاغريقية.

قد يكون هذا الشخص من مسيحيي المشرق. وقد يكون من مسيحيي صقلية. ولكن الأهم هو أن الحوار الذي تتضمنه رسالة ثيودوسيوس يسمح بالقول بأن عددا من "الصقليين" أقبلوا على تعلم اللغة العربية منذ مقدم المسلمين. ولا شك أن بعضهم استطاع النبوغ وانضم للدواوين. ومن المحتمل أيضا أن بعضهم الآخر وضع مصنفات في بعض المعارف. ومن بينهم صاحب كتاب "تاريخ صقلية" السالف الذكر. وهو مؤرخ مجهول وضع ذلك الكتاب نقلا عن نسخة اغريقية وفق ما ذهب اليه الراهب والمؤرخ بيير بَتفول (Pierre Batiffol)[3].

ويتناول هذا الكتاب عمليات فتح صقلية والأحداث التي واكبتها. وقد وردت متسلسلة وفق التقويم الميلادي وليس وفق التقويم الهجري الذي كان يتبعه الإخباريون المسلمون؛ فحافظ واضع النسخة العربية على ذلك التسلسل. ونقل مادة النص الأصلي بلغة عربية بسيطة تضمنت مصطلحات من العامية العربية المتداولة[4]. ويمثل هذا النموذج في اعتقادنا صورة لمظاهر التنوع اللغوي الذي نحن بصدد الحديث عنه.

---

[1] - أنظر نص الرسالة في نفس الكتاب، ص. 362. يقصد ثيودوسيوس بعبارة "اللغة السليمة"، أن الرجل خاطبه باللغة الاغريقية.

[2] - أنظر نص الرسالة في الكتاب السالف الذكر، ص. 367.

[3] - أنظر مقاله الموسوم ب:

"Note sur la chronique arabe dite de Cambridge" , Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, no 34-35, 1890, pp. 394-402.

[4] - لمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص، يمكن العودة لمقال كريستينا لا روزا (Cristina La Rosa):

"Le moyen arabe de Sicile: état de la question et nouvelles perspectives, Synergies Monde arabes, no 07, 2010, pp. 59-65.

ج) المسيحيون المستعربون

كانت هذه الفئة تتألف من مسيحيين من أصول اغريقية ومسيحيين من أصول لاتينية. تبنوا لغة القرآن ولكنهم ظلوا محتفظين بديانتهم. فكانوا يكتبون بلغاتهم الأصلية (الاغريقية أو اللاتينية) وباللغة العربية. كما كانوا يتحدثون بالعامية المتفرعة عن الاغريقية أو العامية المتفرعة عن اللاتينية. ومن المحتمل أنهم كانوا يتحدثون كذلك بالعامية المتفرعة عن اللغة العربية.

يعرف أفراد هذه الفئة في الدراسات والأبحاث الحديثة بمستعربي صقلية[1] على شاكلة مستعربي الأندلس الذين تبنوا ثقافة ولغة العرب وقلدوهم في المأكل والمشرب. وأقبل عدد من المتعلمين منهم على المؤلفات العربية المنظومة والمنثورة.

لا نملك مع الأسف معلومات عن دورهم في الحياة السياسية أيام حكم المسلمين لصقلية. كما لا نملك معلومات عن اسهامات المثقفين منهم في الحركة الثقافية. ولا شك أن بعضهم عاصر فترة حكم الأمراء الكلبيين أو فترة انتقال الحكم من المسلمين الى النورمان. نطرح هذا الاحتمال لأن ثلة من ذوي الأصول اللومباردية والاغريقية برزت أسماؤهم منذ بداية سيادة النورمان لصقلية وشاركوا في عملية نقل التراث العربي – الاسلامي الى اللاتينية كما سنرى لاحقا.

ح) اليهود

تألف الناطقون باللغة العربية من العناصر السالف ذكرها وكذلك من طائفة يهودية كان أفرادها يتحدثون باللغة العربية ويكتبونها بأحرف عبرية. وقد شكلت اللغة العربية جزءا من هويتهم. وظلوا يتداولونها طيلة قرون.

ووجد من بين أفراد الطائفة اليهودية من كان له إلمام باللغة الاغريقية والثقافة الهلنستية أو باللغة والثقافة اللاتينيتين كما ذكرنا في موضع سابق.

ولكننا لا نملك مع الأسف معلومات عن دور هذه الطائفة في الحياة السياسية ابان حكم المسلمين على غرار المعلومات المتوفرة حول دورها في الأندلس. ولا شك أن

[1] - Annliese Nef et Henri Bresc, "Les mozarabes de Sicile (1100-1300)",in Cavalieri alla conquista del Sud - Studi sull'Italia normanna in memoria di Léon-Robert Ménager, éd. Erico Cuozzo et Jean-Marie Martin, Bari, 1998, pp. 134-156.

عددا من مثقفي هذه الطائفة الذين كانوا ملمين باللغة العربية واللغة اللاتينية استطاعوا القيام بدور مهم خلال الحقبة النورمانية. رغم أن ذلك الدور كان باهتا فيما يبدو خلال عهد الملوك الأوائل. ولم يتضح بصورة جلية الا في عهد فردريك الثاني.

يتضح في ضوء ما تقدم أن مستعملي اللغة العربية في صقلية كانوا كثرا. وتوزعوا بين عرب وبربر وصقالبة وسودانيين وخراسانيين ويهود ومسيحيين اعتنقوا الاسلام وتعلموا اللغة العربية ومستعربين تعلموا اللغة العربية وظلوا يدينون بالمسيحية.

ولا شك أن تعدد وتنوع العناصر المستعملة للغة العربية ساهم في اتساع مجال استعمالها كما ساهم في اثرائها. ولكنه كان أيضا وراء ظاهرة التصحيف والمغالطات التي شابتها. ويبدو أن المتعلمين العرب ساهموا بقسط في هذا الوضع. لأنهم لم يحرصوا على تثقيف لسانهم وتقويم ألسنة غيرهم.

وقد تنبه ابن حوقل لهذه الظاهرة. وعاب على بعض فقهاء وخطباء بلرم الجزم والجر والرفع والنصب كيفما شاءوا دون مراعاة لقواعد اللغة العربية[1].

ويعتقد المكتفي بقراءة مؤلفه بان ملاحظته مجرد افتراء يندرج في سياق الانتقادات التي كالها للصقليين. والحال أن الظاهرة كانت حقيقية. ويبدو أنها كانت مستفحلة وفق شهادة الامام الفقيه أبو حفص عمر بن خلف[2] الذي وضع مؤلفا[3]. قام فيه بجرد اشكال التصحيف. واستعرض تجلياتها في أوساط المثقفين وفي أوساط عامة الناس. ونبه الى تداعياتها والى ضرورة استدراك ما يمكن استدراكه.

[1] - أنظر كتابه صورة الأرض، ص. 121

[2] - كان من أعلام صقلية البارزين. جمع بين البحث في أصول الفقه ونظم الشعر والعناية بالنحو. هاجر صقلية الى افريقية سنة 460 هجرية. وتوفي بها حوالي سنة 501 هجرية.

[3] - هو كتاب تثقيف اللسان وتلقيح الجنان. اهتم بتحقيقه عدد من الباحثين من بينهم مصطفى عبد القادر عطا الذي قدم له وقابل مخطوطاته وضبط نصه ونشره ببيروت سنة 1990 ضمن اصدارات دار الكتب العلمية.

2) الناطقون باللغة الإغريقية

أ) المسيحيون الإغريق

كان معظم أفراد هذه الفئة مستقرين، منذ العهد البيزنطي، في المناطق الواقعة شمال شرق صقلية وفي منطقتي كلابريا (Calabre) وبوليا (Puglia). كان المثقفون منهم يستعملون اللغة الاغريقية العالمة ويتبنون الثقافة الهلنستية. أما عامة الناس، فكانوا يتحدثون لغة عامية متفرعة عن الاغريقية. وكانوا يمارسون الشعائر على الطريقة الأورثوذوكسية التي كانت سائدة طيلة الأربعة قرون التي دامها حكم البيزنطيين

ويستفاد من رسالة الراهب ثيودوسيوس (Theodosius) التي سبقت الاحالة عليها، أن سرقوسة مثلت أكبر حاضرة كانوا يستوطنونها. ولا غرو في ذلك، فقد كادت هذه المدينة أن تصبح قاعدة للامبراطورية البيزنطية بعد خريف سنة 663 ميلادية حين انتقل اليها الامبراطور قنسطنس الثاني (Constant II) وأقام بها حتى اغتياله في شتنبر سنة 668 ميلادية.

ويفيد هذا المعطى بأن حضور اللغة الاغريقية والثقافة الهلنستية ازداد قوة في صقلية بعد سنة 663 للميلاد. وظل الأمر كذلك خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية. رغم أن عددا من اغريقي سرقوسة توفوا من جراء الوباء الذي تفشى في أوساطهم بعد الحصار الطويل الأمد الذي ضربه المسلمون على المدينة. بينما لقي عدد آخر حتفه بعد اقتحام المسلمين لها حسب افادات كل من الراهب ديودوسيوس[1] والمؤرخ ابن الأثير[2].

وهذا ما أكده فليكس الي دو لا بريمودي (Félix Elie de la Primaudaie) منذ ستينيات القرن التاسع عشر[3]. وعاد للتذكير به أندري كْييو (André Guillou) في مقال كتبه في ستينيات القرن الماضي[4]. وقد أوضح فيه كذلك أن عددا من المسيحيين الاغريقيين اختاروا، بعد نجاح المسلمين في ضم صقلية، النزوح خارج ايطاليا. بينما نزح آخرون الى مناطق شمال ايطاليا أو الى كلابريا (Calabria) أو الى لوكانيا (Lucania). وإن

---

[1] - أنظر رسالته التي سبقت الاحالة عليها.

[2] - أنظر كتاب الكامل في التاريخ، المجلد السادس، ص. 279. يذكر "قتل من أهلها عدة الوف".

[3] - أنظر كتابه الذي سبقت الاحالة عليه:

Les arabes en Sicile et en Italie. Les normands en Sicile et en Italie, pp. 21-22.

[4] - "Grecs d'Italie du Sud et de Sicile au Moyen Age: Les moines", Mélanges de l'École française de Rome, no 75, 1963, pp. 79-110.

الذين فضلوا البقاء بها، ظلوا يكتبون بالاغريقية ويتحدثون لهجة محلية متفرعة عنها. وظلوا يمارسون الشعائر ويرتادون المؤسسات الدينية الخاصة بهم بكل حرية كما تعودوا على ذلك من قبل. كما ظلت المعاملات القائمة بينهم تقوم وفق القواعد التي كانت تقوم عليها ابان سيادة البيزنطيين. فمراسيم الزواج على سبيل المثال، كان يشرف عليها رجال دين اغريق. أما عقود الزواج أو عقود البيع والشراء فكان يحررها موثقون اغريقيون وفق صيغ خاصة مختلفة عن تلك التي كانت متبعة من قبل رجال الدين اللاتينيين.

2) الناطقون باللغة اللاتينية

أ) اللومبارديون والمسيحيون من أصل قوطي أو روماني

كانت هذه الفئة تتألف من أسر صقلية ذات جذور ايطالية- رومانية ومن أسر ذات أصول قوطية أو لومباردية. كانت تتبنى عموما الثقافة اللاتينية وتمارس الشعائر على الطريقة الكاثوليكية المتعارف عليها في الغرب المسيحي. وكان عامة الناس المنتمين لهذه الفئة يستعملون عند الحديث لهجة محلية على غرار عامة مسيحيي غرب أوربا الذين كانوا يستعملون عدة لهجات محلية متفرعة عن اللاتينية "الشعبية"[1]. أما المتعلمون والمثقفون، فكانوا يستعملون في صقلية كما في غيرها الشق العالم من اللغة اللاتينية وهوالمعروف باللاتينية الكلاسيكية التي كانت تمثل لغة البحث والتأليف في سائر أنحاء الغرب المسيحي.

يفيد ما اوردناه في الفقرات السابقة بأن صقلية كانت عشية قدوم النورمان اليها، عبارة عن لوحة فسيفساء متعددة الأعراق والأديان واللغات والثقافات. ولكن الغلبة كانت فيها للعناصر العربية وللاسلام واللغة والثقافة العربيتين. ولذلك اتجهت سياسة الملوك النورمان الأوائل نحو تكريس تلك الهيمنة. بل أقبلوا هم أنفسهم على تعلم اللغة العربية وتحدثوا بها. كما ضربوا بها العملة المتداولة وطرزوا بها الأقمشة الملوكية[2]. واستعانوا بالعناصر العربية في خدمة البلاط وفي تدبير شؤون المملكة وفي قيادة الحروب التي خاضوها.

---

[1] - هي ما يعرف بالفرنسية ب: le latin vulgaire نسبة الى vulgus التي تعني الشعب.

[2] - تناولت هذا الجانب الباحثة ايزابيل دوليزالك (Isabelle Dolizalek) في كتاب بعنوان مثير: "كتابة عربية فوق ملوك مسيحيين".

Arabic script on christian kings. Textile inscriptions on royal garments from norman Sicily, Walter the Gruyter Gmbh, Berlin- Boston, 2017.

وقد مثل ما ذكرناه ظاهرة فريدة في غرب المتوسط. فسرها بيير بتفول (Pierre Batiffol) "بواقعية الملوك النورمان"[1]. وفسرتها أنلييز نيف (Annliese Nef) "ببرڭماتية الملوك النورمان"[2]. لأن هؤلاء أدركوا منذ حلولهم بالجزيرة، طبيعة الظرفية السياسية والديموغرافية التي سيتم فيها انشاء كيانهم السياسي. فنهجوا سياسة المرونة وعملوا على استقطاب الزعامات المحلية المسلمة على اعتبار أن المسلمين كانوا يمثلون الأغلبية في صقلية وكانت لهم صلات قوية بمسلمي غرب المتوسط. فبدت سياستهم غريبة في زمن كان فيه بعض أقطاب المسيحية يروجون لفكر الاقصاء والانتقام. ووجد هذا الفكر في بعض ملوك وأمراء الغرب المسيحي من وضعه موضع التنفيذ.

ونعتقد من جانبنا بأن "ترسيم" اللغة العربية واستقطاب العناصر العربية في عهد الملوك النورمان الأوائل، يفيد بأن مظاهر "التعريب" و"الأسلمة" و"الأشرقة" كانت قوية في صقلية. وقد أقر بهذه الحقيقة معظم الباحثين الايطاليين خلافا لبعض الباحثين الاسبان الذين شككوا في وجود ثقافة عربية اسلامية بالأندلس. ودافعوا عن فكرة "استمرارية" البنى الدينية واللغوية والثقافية بها بعد 92 هجرية. بمعنى أن اسبانيا ظلت محافظة على هويتها الدينية والثقافية ومتشبثة بانتمائها للغرب المسيحي- اللاتيني حتى بداية حركة الاسترداد[3].

ولكن الملوك النورمان الذين مالوا كما ذكرنا الى تغليب المكونات العربية، لم يتناسوا بأن لوحة الفسيفساء تتشكل من مكونات أخرى. فاستعملوا كذلك اللغتين الاغريقية واللاتينية في دواليب الحكم. فكانت عناصر اغريقية ولاتينية تشارك في تدبير شؤون المملكة الى جانب العناصر العربية. كما كانت المراسيم الملكية تصدر باللغتين الاغريقية واللاتينية الى جانب اللغة العربية تبعا لمواضيعها والفئة الاجتماعية أو الطائفة الدينية التي كانت موجهة اليها. وقد صدرت نماذج من تلك المراسيم باللغة

---

[1] - أنظر كتابه:

L'abbaye de Rossano. Contribution à l'histoire de la Vaticane, Paris, Alphonse Picard Editeur, 1891, p. xxiv.

[2] - أنظر كتابها:

Conquérir et gouverner la Sicile islamique aux XIe et XIIe siècles, Rome, Publications de l'École Française de Rome, 2011.

[3] - لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع، يمكن العودة لمقال:

Christophe Cailleaux, "Chrétiens, juifs et musulmans dans l'Espagne médiévale. La convivencia et autres mythes historiographiques", Cahiers de la Méditerranée, no 86, 2013, pp. 257-271.

العبرية أيضا تماشيا مع أهمية الطائفة اليهودية ودورها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

كما احترم أولئك الملوك منظومة الشرائع والأعراف التي كانت تنظم المعاملات بين الأسر التي كانت تتألف منها الطوائف الدينية الثلاث. وأجازوا استعمال اللغات التي كانت متداولة في أوساط رجال الدين وفي المؤسسات الدينية.

وهكذا ظلت اللغة العربية متداولة من قبل أئمة المساجد وظل الآذان يرفع بلغة القرآن كما شهد بذلك ابن جبير. باستثناء خطبة الجمعة التي تم حظرها. كما ظلت عقود الزواج وعقود البيع والشراء والمعاوضة وغيرها من العمليات التي تهم الطائفة المسلمة، تكتب باللغة العربية وتصاغ وفق الصيغ التي كان يجري العمل بها من قبل حتى وان كان شخص مسيحي يمثل طرفا في أحد تلك العقود[1].

وبالمثل، ظلت اللغة الاغريقية متداولة بين أساقفة ورهبان الأسقفيات والكنائس الأورثوذوكسية في صقلية وكذلك في مناطق جنوب ايطاليا حيث غالبية السكان ينحدرون من اصول اغريقية، حتى ان الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع ظل يوهم نفسه بأن أولئك السكان يحكمهم ملوك تابعين لأباطرة بيزنطة. فسعى سنة 1077 ميلادية الى مصاهرة روبير كْيسكار (Robert Guiscard) وطلب يد ابنته زوجة لابنه قسطنطين[2].

وعلى غرار رجال الدين، ظل أفراد النخبة المثقفة من المسلمين والمسيحيين يستعملون اللغات التي كانوا يملكون ناصيتها. فكانت المؤلفات المتداولة موزعة بين مؤلفات مكتوبة بالعربية وأخرى مكتوبة بالاغريقية أو باللاتينية.

وكان ثلة من أولئك المثقفين يترددون على قصر روجر الثاني ببلرم. فكان بعضهم يتحدث باللسان العربي وبعضهم باللغة اللاتينية وبعضهم باللغة الاغريقية. فأضحى القصر عبارة عن مركز لغات. بل ان الملك روجر الثاني، ومن تعاقبوا على حكم صقلية بعده كانوا يتحدثون عدة لغات ويشرفون على انجاز مؤلفات بثلاث لغات كما سنرى لاحقا.

---

[1] - أنظر نماذج من هذه العقود في كتاب المستشرق الايطالي:

Salvatore Cusa, I Diplomi greci ed arabi di Sicilia, pubblicati nel testo originale, tradotti ed illustrati, Stabilimento Lipograf. Lao, Palermo, 1868-1882, 2 volumes

[2] - أنظر كتاب بيير بتفول (Pierre Batiffol) السالف الذكر، ص. xxvi (ص. 26)

وانطلاقا مما أوردناه، نجد بعض الباحثين العرب والغربيين يستعملون عبارة "الثقافة العربية النورمانية" عند الحديث عن الثقافة التي سادت في صقلية بين سنتي 830 و1250 ميلادية. بينما يستعمل البعض الآخر عبارة "الثقافة البيزنطية العربية النورمانية".

ونميل لتفضيل العبارة الثانية على اعتبار أن مستعملها يرومون ادراج جميع المكونات التي كانت تتألف منها ثقافة صقلية خلال الحقبة المذكورة.

والأهم من ذلك في اعتقادنا، هو أن صقلية بدت خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية، مجالا جغرافيا متميزا تعايشت فيه ثقافات العالم القديم. فلم يقم الأمراء المسلمون بإقصاء الثقافة الهلنستية –البيزنطية.

وحين استلم الملوك النورمان حكم الجزيرة، لم يقوموا بإقصاء الثقافة العربية-الاسلامية. ولم يتنكروا للفعاليات الاجتماعية التي كانت وراءها رغم أنهم حققوا الغلبة على الميدان ورغم أنهم استلموا حكم كيان يقع في مجال أوربي- مسيحي ورغم أن بعضهم حكم صقلية في وقت كان فيه الفكر الصليبي آخذا في التنامي منذ نداء البابا أوربان الثاني (Urbain II) في أواخر سنة 1095.

ومن المعلوم أن هذا النداء وجد في شبه جزيرة ايبيريا وفي غالة (فرنسا) عددا ممن تحمسوا له من رجال الدين ومن القادة السياسيين. ويكفي أن نذكر أن أحدهم، وهو بطرس الناسك (Pierre l'Ermite)، شرع مباشرة بعد النداء في تأليب عامة المسيحيين ضد المسلمين وضد اليهود ونجح في استنفار عدد كبير منهم. فقاموا بالتنكيل بيهود رينانيا (la Rhénanie) واتجهوا شاهرين سيوفهم نحو المشرق الاسلامي[1].

والغريب في الأمر، أن الملوك النورمان الذين حكموا صقلية حتى عهد فردريك الثاني، تنكروا تماما لهذا الفكر وأبانوا عن جانب من الحكمة والدهاء حين سخروا كل مكونات ثقافة الجزيرة في تدبير شؤون الحكم. فنجحوا بذلك في اقرار السلم بين مختلف الفئات الاجتماعية والطوائف الدينية التي كانت خاضعة لسلطتهم.

---

[1] - تناول هذه الجوانب عدد كبير من الباحثين نذكر من بينهم جون فلوري (Jean Flori) الذي خصها بكتابين قيمين هما:

- La Première Croisade. L'Occident chrétien contre l'Islam, Bruxelles, Éditions Complexe, 1997.

- Pierre l'Ermite et la première croisade, Paris, Fayard, 1999.

..

وعموما، ظلت الديانات الثلاث واللغات الثلاث والثقافات الثلاث تتقاسم المشهد الديني واللغوي والثقافي في صقلية. كما ظلت مسخرة لتحقيق السلم الاجتماعي حتى منتصف القرن الثالث عشر. حيث بدأ الاتجاه نحو تغليب الديانة المسيحية واللغة والثقافة اللاتينيتين.

وقد هم هذا التحول بطبيعة الحال اللغة الاغريقية والثقافة الهلنستية-البيزنطية[1]. كما هم اللغة العربية والثقافة الاسلامية، نظرا لتراجع القوى الاجتماعية والدينية التي كانت تتبناها.

فقد بدأ عدد الاغريقيين يتراجع منذ عهد فردريك الثاني في وقت ظل فيه عدد المسيحيين اللاتينيين في تزايد مطرد[2]. ورغم ذلك لم تندثر اللغة الاغريقية والثقافة الهلنستية- البيزنطية من صقلية، ومن ايطاليا عامة. حيث ظلت متجذرة. ثم وجدت في الوافدين من البانيا بعد مطلع القرن السابع عشر من أعاد لهما الحياة بقوة.

وبالمثل بدأ عدد المسلمين والمستعربين يتراجع في عهد فردريك الثاني. كما تراجعت أوضاع المسلمين المادية والاجتماعية. وفقدت الزعامات المحلية كثيرا من الامتيازات التي كانت تتمتع بها؛ فتزعمت عدة انتفاضات ترتبت عنها خسائر بشرية. ساهمت بدورها في تراجع عدد المسلمين الذين، تم تجميعهم في "مستوطنة " لوتشيرا (Lucera) التي أنشأها فردريك الثاني حوالي سنة 1220 ميلادية[3]. فأضحت تمثل خلال الثمانين سنة التي دامتها بقعة صغيرة من اليابس تحيط بها المياه من كل جانب حتى قام شارل الثاني الأنجووي (Charles II d'Anjou) ملك نابولي وصقلية بتفكيكها سنة 1300 ميلادية.

---

[1] - أنظر في هذا الشأن:

Jean-Marie Martin,"L'empreinte de Byzance dans l'Italie normande. Occupation du sol et institutions", Annales Histoire, Sciences Sociales, no 04, 2005, pp. 733-765.

[2] - لمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص، أنظر الفصل الثاني عشر من كتاب:

- Henri Bresc, Un monde méditerranéen: économie et société en Sicile, 1300-1450, Rome, École Française de Rome et Palerme, Academia di Scienze, Lettere e Arti di Palermo, 1986, 2 vol.

[3] - عن ظروف نشأة تلك المستعمرة أنظر عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية الفصل العاشر وكذلك الفصل الختامي.

وحدث في لوتشيرا ما حدث في شبه جزيرة ايبيريا بعد استرداد المسيحيين لها. حيث تم ارغام الأسر المسلمة على اعتناق المسيحية. كما بيع عدد من افرادها في سوق النخاسة. فخبت جذوة اللغة العربية والثقافة الاسلامية بجزيرة صقلية.

ولا نعتقد أنها انطفأت تماما. فمن المحتمل أن تكون بعض تلك الأسر قد ظلت تتداول اللغة العربية وتقيم شعائر الاسلام بصورة خفية. ويكون ذلك قد ساعد على تجذر اللغة العربية في هذه الربوع.

وحتى اذا افترضنا أن ذلك لم يحدث، فقد ظلت اللغة العربية متداولة في صقلية من قبل عدد قليل من افراد الطائفة اليهودية. ويفيدنا هنري بريسك في هذا الصدد بأن معظم الأسر اليهودية أخذت تتجه مضطرة نحواستعمال اللغة اللاتينية. ولكن بعضها ظلت متمسكة باستعمال اللغة العربية حتى عشية طرد اليهود من صقلية[1]. ونعتقد أن ذلك ساعد على تجذر اللغة العربية في الجزيرة.

وما يؤكد هذا التجذر هو أن اللهجة المتداولة حاليا في صقلية تتضمن مجموعة كلمات ذات أصل عربي. وقد ذكر عزيز أحمد نقلا عن بعض المستشرقين أن تلك اللهجة تتضمن حوالي مائتي كلمة عربية[2].

وإن تداول اللغة العربية اليوم بين أفراد الجالية العربية المقيمة ببعض مدن صقلية وبعموم مدن ايطاليا، وكذلك إقبال عدد من الطلبة وعموم الايطاليين على تعلمها سيعيد لها، من دون شك، جانبا من البريق الذي كانت تنعم به في الماضي.

---

[1] - Livre et société en Sicile (1299-1499), Centro di Studi filologici e linguistici siciliani. Supplement al bollettino 3, Palermo 1971, p. 68.

[2] - تاريخ صقلية الاسلامية، ص. 106.

الفصل الثاني

بعض مظاهر التعايش بين معتنقي الديانات الثلاث

خلال الحقبتين الإسلامية والنورمانية

يمثل التراث المادي واللامادي أهم دعامة يمكن الاستناد اليها للوقوف على مظاهر التعايش بين معتنقي الاسلام والمسيحية واليهودية في صقلية خلال حقبتي سيادة المسلمين والنورمان.

ولا بأس من التوضيح بأننا نقصد بهذا التراث مخلفات الفاعلين في تاريخ وحضارة تينك الحقبتين. ويمكن الوقوف عليها في النصوص الخطية وفي أروقة المتاحف وعلى الطبيعة المرئية. وتتمثل تلك المخلفات عموما في محتوى المصنفات المتداولة وفي البقايا واللقى الأثرية وفي المنشآت العمرانية التي ما زالت ماثلة للعيان في جزيرة صقلية.

وتقدم في مجملها، وبتعابير مختلفة، تجليات التعايش على مستوى الحياة السياسية وعلى مستوى الأنشطة الاقتصادية وعلى مستوى الحياة الاجتماعية والدينية. وعلى مستوى الأنشطة الثقافية والفكرية التي سنفرد لها الفصل الموالي. الذي ارتأينا أن نتحدث فيه بشكل مستقل عن أشكال وصيغ الانفتاح والمشاركة بين مثقفي صقلية.

وبناء عليه، سنستعرض بتركيز في الصفحات الموالية تجليات التعايش بين أتباع الديانات الثلاث على مستوى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. وسنستهل العرض بالتطرق لصورة أتباع الديانات في مؤلفات بعض المثقفين الممثلين لتلك الديانات.

أولا: حضور معتنقي الديانات الثلاث في المؤلفات الاسلامية والمسيحية واليهودية

نستهل هذا المبحث بالقول بأن الدراسات والأبحاث العربية التي تتناول الديانات الثلاث وكل ما له صلة بالطوائف التي كانت تعتنقها في صقلية خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية قليلة جدا بالمقارنة مع الأبحاث الأجنبية التي يتطلب الاطلاع عليها دراية باللغات التي كتبت بها.

ونعتقد أن حضور تلك الديانات ومعتنقيها في هذه الدراسات والأبحاث يمثل امتدادا لحضورها في المؤلفات الاسلامية والمسيحية واليهودية التي عاصر واضعوها الحقبتين المذكورتين او التي عاشوا بعدها وكتبوا عنها بشكل مستفيض. وتتوزع تلك المؤلفات بين كتب التاريخ العام والاخباريات وكتب الجغرافيا والرحلات وكتب الأدب بالاضافة الى السجلات والعقود.

سنختار نماذج من تلك المؤلفات لرصد طبيعة حضور الديانات الثلاث وأتباعها من مسلمين ومسيحيين ويهود.

1) حضور معتنقي الديانات الثلاث في المؤلفات الإسلامية

نوضح في البداية بأن كتب التاريخ العام التي وضعها اخباريون مسلمون تمثل في اعتقادنا أهم مصدر يمكن من خلاله رصد ذلك الحضور. لأنها تتضمن مختلف الأحداث التي كان وراءها معتنقو الديانات الثلاث. ولكن الملاحظ أن ما وضع منها باللغة العربية هزيل جدا. فحين قرر المستشرق الايطالي ميخائيل أماري وضع مكتبة عربية خاصة بالمؤلفات الصقلية لم يعثر على شيئ. وكل ما قام به هو جمع شتات نصوص تتعلق بصقلية مثبتة في مؤلفات مؤرخين وجغرافيين وفقهاء وغيرهم. ومعظم تلك النصوص وضعت خارج صقلية من قبل مؤلفين مشارقة. وبعضها وضع من قبل مؤلفين مغاربة. وإن "المؤلف" الوحيد الذي وضع في صقلية، ومن قبل احد أبنائها، هو مجرد نص من بضع صفحات سماه صاحبه "كتاب في تاريخ جزيرة صقلية" تم العثور عليه ضمن رصيد خزانة جامعة كمبريدج. ويطرح مشكلا عويصا لكون صاحبه مجهول الهوية. ولأن لا أحد من المؤرخين المشارقة أو المغاربة اعتمده في مؤلفه أو أشار الى واضعه. ولذلك اكتفى ميخائيل أماري بإثباته في "مكتبته" دون الكشف عن هوية مؤلفه. بينما قام الباحث الايطالي كوزا

لوزي (Cozza Luzzi) بنشر نفس النص وأرفق كل صفحة عربية منه بصفحة مكتوبة بالاغريقية. بما يفيد بأن أحد النصين ترجمة للآخر. وإذ اكتفى كوزا لوزي بهذا العمل دون القيام بدراسة وافية للنصين، فقد ترك الشكوك تحوم حولهما. فتجشم الراهب والمؤرخ بيير بَتفول (Pierre Batiffol) عناء تسليط الضوء على المسألة. فذهب الى أن النص من وضع شخص مجهول الهوية. وقد وضع أصلا باللغة الاغريقية ثم قام شخص مجهول الهوية بدوره بنقله الى اللغة العربية[1]. وبعد قيامه بمقابلة بين النصين وبمقابلة بين الترجمة الايطالية والترجمة اللاتينية للنصين، خلص الى أن واضع الترجمة العربية "متعلم" عربي اللسان. ولكنه مع ذلك كتب النص المترجم بلغة ضعيفة نسبيا وحافظ على التقويم المسيحي المعتمد في النص الأصلي. كما أنه أسقط من النص المترجم ذكر بعض الأحداث الواردة في النص الاغريقي مثل حدث تقديس الصور في المسيحية الأرثوذوكسية الذي أعيد احياؤه بين سنتي 842 و843 للميلاد وحدث تعميد اليهود الذي وقع بين سنتي 874 و875 ميلادية. وخلافا لذلك حرص المترجم على ضبط أسماء الأمراء المسلمين وضبط تواريخ مختلف الغزوات التي ورد ذكرها في النص الأصلي. وهذا ما حذا بنا الى الاعتقاد، كما ذكرنا فيما مضى بأن "المتعلم" "واضع الكتاب او مترجمه" شخص مسيحي اعتنق الاسلام وتعلم اللغة العربية.

وما يهمنا فيما نحن بصدده في هذا المبحث، هو أن النسخة العربية من النص تناولت أحداث فتح صقلية في المقام الأول. ومن ثم، ركز واضعها (أي من قام بنقل النص من الاغريقية) على طرفي تلك الأحداث أي المسلمين وبيزنطي صقلية الذين سماهم "بالروم". وربما هذا ما يفسر عدم ذكره للحدثين المشار اليهما من قبل بيير بتفول. ونعتقد أن عدم ذكره لهما لا يفيد بنوع من التعصب للإسلام والمسلمين. لأنه بدا محايدا في عرض الأحداث والوقائع. ولم يتحمس لأحد طرفي تلك الأحداث والوقائع.

وبغض النظر عن هذا النص الذي يطرح بعض الاشكالات كما رأينا، فإن أبرز كتب التاريخ العام التي وضعها مسلمون والتي تطرقت للقوى الاجتماعية الفاعلة في تاريخ وحضارة صقلية خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية، تتمثل في كتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير.

[1] - "Note sur les sources de la chronique arabe dite de Cambridge", Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, no 34-35,1890, pp. 394-402.

والواقع أن مؤلفه لم يعش في صقلية. كما لم يعاصر زمنيا الحقبة الاسلامية. ورغم ذلك يكتسي أهمية بالغة بالنظر لطبيعته الشمولية واعتماد مؤلفه على روايات مفقودة تتعلق بأحداث صقلية وبالنظر أيضا لغزارة المعلومات التي قدمها حولها. ومثل هذه المعطيات تسمح بغض الطرف عن عدم معاصرة مؤلف الكتاب للأحداث.

وبما أن صقلية أضحت جزءا من دار الاسلام خلال فترة من تاريخها، فقد تناول ابن الأثير الأحداث التي شهدتها ضمن الأحداث التي شهدتها دار الاسلام. واتبع في عرض تلك الأحداث التقويم الهجري على غرار المؤرخين المسلمين. وارتأى سيرا على منوال بعضهم استهلال "تاريخه" بالحديث عن بدء الخلق وتعاقب الرسل والأنبياء والديانات السماوية الثلاث. فشغل هذا الاستهلال معظم صفحات المجلد الأول[1].

وقد تعرض ابن الأثير للأحداث الكبرى التي شهدتها صقلية في المجلد الخامس الذي يتناول احداث الفترة الممتدة بين سنتي 127 و217 هجرية وفي المجلد السادس الذي يتناول أحداث الفترة الممتدة بين سنتي 218 و308 هجرية. وتناول بضعة أحداث أخرى شهدتها صقلية ضمن المجلد السابع الذي يتناول احداث الفترة الممتدة بين سنتي 309 و388 هجرية.

ونظرا لكون معظم تلك الأحداث تتعلق بعملتي فتح ونشر للاسلام في مجال جغرافي مسيحي، فقد كان المسلمون والمسيحيون الطرفين الرئيسيين وراءها. فنظر مؤلف الكتاب للمسلمين كفاتحين حاملين لرسالة قدموا من اجلها كثيرا من التضحيات. ونعت "البيزنطيين" سادة صقلية قبل الفتح الاسلامي "بالروم". ووسمهم بالشجاعة والاستبسال والاستماتة في الدفاع عن معاقلهم. ولكنه وصفهم مرة "بالكفار". ووصم بعض قادتهم "بالخذلان" و"الخيانة". فأولهم "فيمي" أو أوفيميوس (Euphemios) الذي قدم خدمات جلة للمسلمين ساعدتهم على فتح صقلية كما فعل "يليان" المسيحي حين عزم المسلمون على فتح الأندلس. وآخرهم، لم يذكر اسمه، نبه المسلمين الى استغلال فصل الشتاء بتساقطاته المطرية والثلجية لفتح مدينة قرصيانة. وذلك ما حدث بالفعل وتمكنت سرية من المسلمين من التسلل اليها في غفلة من الحراس. ففتح جنود السرية أبواب المدينة أمام المقاتلين.

وغاب اليهود عن أحداث صقلية للسبب الوارد ذكره آنفا. ولم يحضروا سوى في حدث واحد وقع سنة 371 هجرية. وقد تمثل حضورهم في شخص "رجل يهودي كان

[1] - نذكر بأننا سنتحدث في هذا الحيز عن المجلدات انطلاقا من نسخة دار الكتب العلمية التي اعتمدنا عليها في انجاز هذا الكتاب

خصيصا بملك الفرنجة بروديل". الذي خرج من بلاده على رأس جموع غفيرة من الفرنجة يريد قلعة مالطة. فوقعت معركة دامية بينهم وبين المسلمين. دارت فيها الدوائر على الفرنجة. فتنازل اليهودي عن فرسه للملك الذي فر بجلده من المعركة بينما لقي اليهودي حتفه[1].

ويأتي "بيان" ابن عذاري[2] في المقام الثاني بعد "كامل" ابن الأثير. ولكنه يبدو أقل قيمة منه في نظرنا بالنسبة للبحث في تاريخ وحضارة صقلية، لأن مؤلفه لم يول أهمية كبرى لأحداث صقلية رغم ارتباطها بافريقية الأغلبية والفاطمية التي خصها بحيز مهم من المجلد الأول. ومن ثم، جاء حضور القوى الفاعلة في احداث صقلية باهتا في الكتاب. ولكن لا بد من الاشارة الى أن مؤلفه ربط الوجود الاسلامي بصقلية "بالغزو". وقد ردد هذه العبارة عدة مرات في الفقرات القليلة التي تطرق فيها لأحداث صقلية. ونعتقد أن ما يبرر استعمال المؤلف لهذه العبارة هو كون أولى حملات الأغالبة على صقلية تمت في أعقاب اتهام الأغالبة للبيزنطيين بكونهم نكثوا الهدنة الموقعة بينهم وبين المسلمين.

والجدير بالذكر أن ابن عذاري اشترك مع ابن الأثير في كونه أشار الى سادة صقلية البيزنطيين باسم "الروم". ولكنه نعتهم مرة "بالنصارى" ومرة أخرى "بالمشركين".

وخلافا لعموم المؤرخين المسلمين، تبنى الجغرافيون رؤية أكثر شمولية. فتطرقوا للعالم كما كان معروفا في عصرهم. ولذلك لم يغفلوا بالحديث والوصف أية حاضرة أو قرية تنتمي للمجال الاسلامي أو المسيحي. ولعل أبرزهم فيما يتعلق بموضوع هذا المبحث الشريف الادريسي الذي نجح في وضع جغرافية متكاملة (une géographie totale) أحاط فيها بمختلف أصقاع العالم بغض النظر عن معتقدات سكانها. ورغم أنه أنجز تلك الجغرافية المتكاملة في حاضرة مسيحية وتحت إشراف ملك مسيحي، لم يفرط في هويته الاسلامية ولم يتملق لمعتنقي المسيحية كما لم يتحامل على معتنقي اليهودية. وقام في الصفحات التي خصها لصقلية في مؤلفه بتعريب بعض المصطلحات اللاتينية وبعض المصطلحات البربرية دون ان ينطلق من المبادئ المعروفة اليوم بتعايش الثقافات أو تداخل اللغات وما الى ذلك. ولذلك كان مؤلفه وما زال الى اليوم محط اهتمام وإعجاب الباحثين من مختلف الديانات.

---

[1] - أنظر الجزء السادس، ص. 399 من الكتاب.

[2] - أحلنا عليه في هامش سابق. ونذكر هنا بأننا اعتمدنا على النسخة التي حققها وضبط نصها وعلق عليها، بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد وصدرت عن، دار الغرب الاسلامي بتونس سنة 2013،

وعلى غرار الجغرافيين، كاد الرحالة المسلمون الذين جابوا العالم القديم أن يضعوا مؤلفات شاملة للأمكنة وللمجتمعات وللديانات السماوية فضلا عن بعض المعتقدات التي كانت تتبناها بعض المجتمعات في مناطق من آسيا.

وما يهمنا في هذا المقام، هو أن حضور سكان صقلية من أتباع الديانات الثلاث كان متفاوتا في مؤلفات الرحالة الذين زاروا هذه الجزيرة، كابن حوقل وابن جبير.

فمسلمو صقلية حضروا في صورة مثيرة للاستغراب في الصفحات التي خصها ابن حوقل لهذه الجزيرة. حيث تحامل عليهم كثيرا ونعتهم بنعوت قبيحة استغرقت عدة فقرات من النص القصير الذي خصصه لصقلية. كما أنه لم يشر للطائفة المسيحية التي كانت مقيمة بالجزيرة زمن زيارته لها. وعبر ضمنا عن تحقيره لليهود حين ربط ذكرهم "بالقذارة" في هجوه لمسلمي صقلية قائلا: بأنه "ليس يشبه وسخهم [أي مسلمو صقلية] في دورهم وسخ أقذار اليهود"[1].

بينما استحضر ابن جبير المسلمين والمسيحيين. وفاته الحديث أو الاشارة الى طائفة اليهود. وتبنى أحكام قيمة في حق الطائفتين تأرجحت بين السلب والايجاب. فتراه يعبر في موضع عن ارتياحه لأوضاع المسلمين لأنهم يمارسون الشعائر بكل حرية ولأن من بينهم من أضحى من رجال البلاط. ثم يعود للتعبير في موضع آخر عن حسرته لما آلوا اليه بعد نهاية حكم المسلمين للجزيرة. وفي الوقت ذاته تراه يثني على المسيحيين. ثم يعود لوسمهم "بالكفار" ويدعو الله أن يلحقهم الدمار. ويصف الملك النورماني بحسن السيرة. ثم يعود لوسمه "بالغلظة" ونعته "بالطاغية".

فقد استهل ذلك الثناء بالحديث عن شهامة غليوم الثاني الذي ما ان بلغه نبأ إشراف المركب الذي كان على متنه ابن جبير على الغرق، حتى خرج شخصيا على رأس رجاله للاطلاع على أحوال الركاب والاشراف على عملية انقاذهم. كما قدم مبلغا من المال لعدد من الركاب المسلمين الذين عجزوا عن دفع ما كان يطالب به أرباب "الزوارق المغيثة"[2]. ثم عاد للثناء عليه حين ذكر بأنه أباح للمسلمين اقامة الشعائر وتشييد دور لتعليم القرآن.

وتحدث عن سماحة المسيحيين وكيف أنهم لا يجدون غضاضة في تبني بعض تقاليد وعادات المسلمين[3]. ولكنه أبان عن نوع من التعصب في بعض المواضع. فقد نعت

---

[1] - أنظر كتاب صورة الأرض، ص. 142.

[2] - أنظر رحلة ابن جبير، ص.265..

[3] - نفس المصدر، ص. 274.

مسينة بكونها مدينة "مظلمة الآفاق بالكفر (...) مشحونة بعبدة الصلبان (...) مملوءة نتنا ورجسا. لا توجد لغريب أنسا"[1]. وتناقض للتو مع ما عبر عنه حين ذكر بأن من نزل بها ليلا أو نهارا، يكون في أمان حتى "وان كان غريب الوجه واليد واللسان"[2].

ونعتقد أن موقف ابن جبير المتذبذب نابع من تلك الصورة النمطية التي كانت شائعة في أوساط عدد من المثقفين المسلمين عن المسيحيين. ورغم أنه عاين في صقلية واقعا مختلفا نسبيا عما كان من الممكن أن ينتظره، لم يستطع تجاوز مكونات الصورة المرسومة في ذهنه.

والغريب في الأمر أن بعض الشعراء المسلمين الذين ظلوا مقيمين بصقلية بعد نهاية الحكم الاسلامي، استطاعوا تجاوز تلك الصورة في فترة سابقة على زيارة ابن جبير للجزيرة. ولا ندري هل تكون أصداء ذلك "التجاوز" قد بلغت مسامعه أم لا؟

وقبل الحديث عن تجليات ذلك "التجاوز"، لا بأس من التذكير بأن حضور أتباع الديانات الثلاث كان مألوفا في كتابات أدباء صقلية المنثورة والمنظومة. وان لم يكن حضور المسيحيين واليهود فيها بمقدار القوة التي حضروا بها في الأدب الأندلسي بحكم وفرة المؤلفات الأدبية التي احتفظ بها الزمن وبحكم طول المدة التي عمرها الوجود العربي الاسلامي بالأندلس.

وسيكون من البديهي القول بأن حضور مسلمي صقلية كان قويا في عدد من الرسائل والقصائد الشعرية. لأن واضعيها تناولوا بعض قضايا عامة المجتمع الخلقية والأخلاقية والدينية. كما انهم كتبوا فصولا ونظموا قصائد في بعض خاصة المجتمع وعلية القوم. ومن بينهم الأمراء الكلبيين الذين خصهم بعض الشعراء، كأبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن الخياط، بعدد من قصائد المدح[3].

ولكن ثلة من الشعراء من بين الذين ظلوا مقيمين بصقلية بعد نهاية حكم المسلمين لها، قاموا بنوع من "التجاوز" الايجابي نحو الآخر. فلم يكتفوا باستحضار هذا

---

[1] - نفس المصدر، ص. 266..

[2] - كتاب صورة الأرض، نفس الصفحة.

[3] - لمزيد من التفاصيل يمكن العودة لكتاب الدرة الخطيرة لشعراء الجزيرة، ص.ص. 134-144. كما يمكن العودة كذلك لكتاب أسامة اختيار، الشعر العربي في جزيرة صقلية. اتجاهاته وخصائصه الفنية منذ الفتح حتى نهاية الوجود العربي فيها (212-647 هـ)، منشورات وزارة الثقافة والهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2008، ص. 177 وما يليها

الآخر، أي المسيحيين، بالنقد على غرار ما قام به بعض شعراء الأندلس، بل مدحوا بعض الملوك النورمان وخلدوا أمجادهم ووصفوا قصورهم وتغنوا بمتنزهاتهم. والأكثر من ذلك أن أحدهم، وهو أبو الضوء سراج، شارك روجر الثاني أحزانه على اثر وفاة ابنه البكر ورثاه بقصيدة مؤثرة[1].

ويمثل هذا "التجاوز" في اعتقادنا موقفا تفرد به شعراء صقلية عن سائر شعراء المناطق التي اندرجت ضمن دائرة الاسلام. ولذلك أحجم القدامى عن تدوين قسم مما نظمه أولئك الشعراء بدعوى أنه قيل في نفر من "الكفار". ولحسن الحظ لم يذهب الأمر بمنتقديهم الى تكفيرهم.

ومن المحتمل جدا أن ذلك التجاوز كان تلقائيا. وقد ذكر أسامة اختيار فعلا بأن أولئك الشعراء لم يكونوا مجبرين على القيام بما قاموا به[2]. ونضيف من جانبنا بأنه كان بإمكانهم البحث عن مورد رزق غير قول الشعر. كما كان بامكانهم مغادرة الجزيرة على غرار عدد من أهل القلم الذين هاجروا الى افريقية والأندلس.

2) حضور معتنقي الديانات الثلاث في المؤلفات المسيحية

ذكرنا من قبل أن حضور معتنقي الديانات الثلاث في المؤلفات الاسلامية يمكن الوقوف عليه بصورة جلية في مصنفات الاخباريين. كذلك، يمكن على نفس النحو، رصد ذلك الحضور في مؤلفات الاخباريين المسيحيين. وأهمها بالنسبة لتاريخ صقلية ثلاث إخباريات (chroniques) وضعت بين سنتي 1080 و1100 ميلادية، عاصر مؤلفوها مرحلتي زحف النورمان على جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية وقيام المملكة النورمانية. تتمثل الأولى في اخبارية أمَتوس المُنْتِكَسِنوسي (Amatus Casinensis)[3] الموسومة "بتاريخ النورمان"[4] والثانية في اخبارية گُفْريدوس مَلاتيرا (Gaufridus

---

[1] - أنظر احسان عباس، العرب في صقلية، مرجع سبق ذكره، ص. 367.

[2] - نفس المرجع، ص. 193.

[3] - راهب من رهبان دير مرتفع كاسينو (Montis Cassini) بجنوب ايطاليا. اشتهر بوضعه لاخبارية حول تاريخ نورمان ايطاليا وصقلية. توفي حوالي سنة 1105 ميلادية.

[4] - تتالف هذه الاخبارية من ثمان كتب. انتهى من وضعها سنة 1080. وقد اهتم بتحقيقها ونشرها عدد من الباحثين. من بينهم جاك-جوزيف شامبليون- فيجاك (Jacques-Joseph Champollion-Figeac) الذي حققها ونشرها سنة 1835 تحت عنوان:

L'ystoire de li normant et la chronique de Robert Viscart par Aimé moine du Mont-Cassin.

والراهب أديان جون- ماري دولارك (Odéen Jean-Marie Delarc) الذي أعاد تحقيقها ونشرها سنة 1892 تحت عنوان:

Ystoire de li Normant, Rouen, A. Lestringant, Librairie de la Société de l'histoire de la Normandie, 1892.

وهي النسخة التي اعتمدناها في هذا الكتاب.

Malaterra)[1] المعروفة عموما " بتاريخ القمط روجر وأخيه روبير كُيسكار"[2] والثالثة في اخبارية وليام البوليانوسي (Guillelmus Apuliensis)[3] المشهورة "بانجازات روبير كُيسكار"[4].

يشترك الاخباريون الثلاث في كونهم رهبان على الطريقة البندكتية. تناولوا في مؤلفاتهم اصول النورمان ومراحل زحفهم على جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية وما اتصل بذلك الزحف من احداث.

والواقع أن التطرق لمراحل الزحف وما ارتبط به من أحداث لم يكن مقصد الاخباريين الثلاث، بقدر ما كان همهم تبرير وفادة النورمان الى هذه الديار من وجهة نظر دينية لإضفاء المشروعية على ما قاموا به. ولذلك لم يعتبروهم مجموعة فرسان مغامرين قدموا الى جنوب ايطاليا من أجل تحقيق ذواتهم ومن أجل الغزو والبحث عن الثراء كما يقول بذلك الباحثون المحدثون والمعاصرون. بل اعتبروهم "فرسانا مرسَلين" قدموا من الشمال الى جنوب ايطاليا وصقلية لنصرة المسيحية الكاثوليكية ونشر الثقافة اللاتينية. والملاحظ أن أمَتوس المنتكسنوسي اشترك معهم في القول بهذا المبرر رغم أنه ايطالي الأصل [5].

واشترك الاخباريون الثلاث كذلك في تصوير انجازات النورمان العسكرية بالملاحم. لأن "الفرسان المرسلين" كانوا فئة قليلة في مواجهة جيوش ضخمة. فقد انتصر فيلق من "ستين فارسا" تحت امرة روجر على مئات الفرسان الاغريق في كلبريا[6]. لأن النورمان "جنس انتقاه الله للقيام برسالة نبيلة". ولذلك أمدهم "بقوة خارقة"[7].

---

[1] - سبق أن عرفنا به في هامش سابق بمناسبة الحديث عن المسيحية في صقلية.

[2] - عرفنا بهذه الاخبارية في هامش سابق.

[3] - رجل دين ينتمي لمنطقة بوليا (Puglia) الواقعة بأقصى جنوب ايطاليا. اشتهر بوضعه لاخبارية تتناول المراحل الأولى من تاريخ النورمان في جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية. توفي بعد سنة 1112 ميلادية.

[4] - أنجز هذه الاخبارية بين سنتي 1088 و1111 ميلادية. تقع في خمس كتب. تتوفر النسخة اللاتينية منها على موقع المكتبة اللاتينية (the latin library). وقد حققتها وترجمتها الى الفرنسية مرغريتا ماتيو (Marguerite Mathieu) ونشرتها في بلرم سنة 1961 تحت عنوان:

La geste de Robert Guiscard.

[5] - أنظر اخباريته:

Ystoire de li normant, livre premier, chapitre 1, p. 09, chapitre 5, pp.11-12 , chapitre 17, pp. 18-19 et chaptre 32, p.40.

[6] - كُفريدوس ملترا (Gaufridus Malaterra) النسخة اللاتينية من اخباريته، الكتاب الثاني، الفصل التاسع عشر.

[7] - Amatus Casinensis (Aimé du Mont-Cassin), Ystoire de li normant, livre cinquième, chapitre 18, pp. 210-211.. et Guillelmus Apuliensis (Guillaume de Pouille), Gesta Roberti Wiscardi,incipit secundus.

وحاول الاخباريون الثلاث التأكيد على فكرة مفادها أن "الفرسان المرسلين" قاموا بحركة بعث لايطاليا الكاثوليكية اللاتينية بعد القطيعة التي ترتبت عن مقدم البيزنطيين والمسلمين الى هذه الربوع.

وأكد على هذا الجانب ڤفريدوس ملترا (Gaufridus Malaterra) بوجه الخصوص. فقد توقف عند الجانب الديني في شخصية القمط روجر. فذكر كيف حدث مرة أن القمط ورجاله كانوا عائدين الى رجيو (Reggio) عبر البحر على متن زوارق محملة بغنائم حصلوا عليها بعد وقعة ضد الاغريقيين، فهاج البحر وكادت الزوارق أن تغرق. فاقترح عليه بعض رجاله الالقاء بحمولتها في البحر. فرفض واقترح ان تجاوزت الزوارق هذه المحنة، أن ينفق حمولتها في بناء كنيسة. وذلك ما حدث. فقد هدأت العاصفة وأوفى القمط بوعده وشرع بعد العودة مباشرة في تشييد كنيسة جديدة بضواحي المدينة[1]. وتحدث ڤفريدوس في موضع آخر من اخباريته عن تبتل القمط روجر واجتهاده في التقرب من الله بتقديم الصدقات للفقراء وتقديم الأعطيات لبعض رجال الدين وقيامه بترميم وتشييد عدد من الأسقفيات والكنائس قبل استكمال السيطرة على صقلية[2].

وتجسدت حركة بعث الكاثوليكية أيضا في سيطرة النورمان على مواطن الاغريقيين. فتحامل عليهم الاخباريون الثلاث. ووصفوا الانتصارات التي حققها النورمان في منطقة بوليا (Puglia) بأنها كانت "منة من الله". ونعتوا الإغريقيين "بالمتخاذلين" وبكونهم جبناء و"نسوة" (fames)[3]. لأنهم مالوا الى حياة الدعة. وأضحوا غير قادرين على الدفاع عن أرضهم وصون عرضهم حين اقتحم البيزنطيون ديارهم.

وكان من المنتظر أن يتحاملوا كذلك على مسلمي صقلية لسبب بسيط وهو أن الاخباريين الثلاث رهبان. وقد استعملوا عند الحديث عنهم لفظة "sarracenis" (السرَسينيين). وهي اللفظة التي كان يتداولها إخباريو العصر الوسيط من المسيحيين. وما زال قلة من الباحثين الفرنسين يستعملون لفظة "Sarrasins" المشتقة منها.

---

[1] - أنظر اخباريته، النسخة اللاتينية، الكتاب الثاني، الفصل السادس.

[2] - نفس المصدر، الكتاب الرابع، الفصل السابع. وانظر كذلك كتاب:

Baron de Bazancourt, Histoire de la Sicile, Tome I, p. 357.

[3] - Ystoire de li normant, livre premier, chapitre 21. p. 25.

وقليلا ما استعملوا تلك اللفظة مردوفة بنعت. فقد نعت أمَتوس المُنْتِكَسنوسي المسلمين "بالوثنيين" (li pagan)[1] مجردة. بينما كان كْفريدوس ملترا الوحيد من بين الإخباريين الثلاثة الذي استعمل مرة واحدة لفظة "sarracenis" مقرونة بنعت "الأشرار" (impiis) على هذا النحو: (impiis sarracenis)[2]. ويذكرنا ذلك بنعت "الكفار" الذي استعمله الاخباريون المسلمون في حق "المسيحيين " و"الروم" كما رأينا فيما مضى.

ولكن الملاحظ أن تحامل الاخباريين الثلاث لم يكن بنفس الحدة التي تحامل بها اخباريون مسيحيون آخرون على مسلمي الأندلس بمناسبة وقعة بلاط الشهداء أو على مسلمي بلاد المشرق الاسلامي بمناسبة الحروب الصليبية.

فقد خص أمَّتوس المُنتِكَّسِنوسي معظم فصول الكتاب الخامس من اخباريته للحديث عن الوقائع التي دارت رحاها بين النورمان والمسلمين. واكتفى في موضوعها بابراز بسالة الفرسان النورمان. فقال عند الحديث عن الوقعة التي لم يتمكن النورمان من حسمها بسرعة للسيطرة على بلرم، بأن "مقاومة المسلمين لن تطول. وسياتي حين يذوبون فيه كما يذوب الشمع بفعل النار"[3].

وتطرق كْفريدوس مَلاتيرا في "الكتاب" الثاني من مصنفه للمواجهات التي التقى فيها مسلمو صقلية بالمحاربين النورمان. وبالغ في إبراز حنكة وشجاعة الفرسان النورمان. ولكنه كان يطري في كل مرة على شجاعة المسلمين. وقد تطرق للحصار البري والبحري الذي ضربه النورمان على الحاضرة بلرم لمدة خمسة اشهر. فذكر بأن تلك المواجهة لم تكن سهلة. وقد دافع المسلمون خلالها عن المدينة بشراسة. ورغم ذلك لم يتحامل عليهم. واكتفى "بالتغني" ببسالة الفرسان النورمان وحنكة القائدين روجر وأخيه روبير كْيسكار وسماحتهم بعد السيطرة على بلرم[4].

---

[1] - Ystoire de li normant, livre premier, chapitre 17, p. 19.

نشير الى أن النسخ المتداولة من هذه الاخبارية تم تحقيقها انطلاقا من نص يعود للقرن الرابع عشر مكتوب باللغة الفرنسية الوسطى. وبناء عليه، فان كلمة pagan مشتقة من كلمة paganus اللاتينية.

[2] - أنظر اخبارية كْفريدوس ملاتيرا، النسخة اللاتينية، الكتاب الثاني، الفصل الخامس والأربعين. نشير الى أن لفظة "impiis" ذات دلالات كثيرة. فهي قد تعني "الكفار" و"الأشرار" و"غير المؤمنين" و"الوثنيين" و"الهراطقة".

[3] - Ystoire de li normant, livre cinquième, chapitre 22, p.213..

[4] - أنظر الكتاب الثاني، الفصل الخامس والأربعين من النسخة اللاتينية.

وتغنى وليام البوليانوسي بدخول النورمان الى بلرم "فاتحين". وتوقف عند عتبة التغني. ولم يشمت بالمسلمين. بل ذكر أن القائد روبير كيسكار أصدر أوامره للفرسان بعدم تدمير المنشآت أو التنكيل بالسكان كما فعلوا في مواقع أخرى. واقر المسلمين على دينهم مقابل دفع جزية[1].

والراجح أن طريقة تناول الاخباريين الثلاث لمراحل زحف الفرسان النورمان على المواقع الاسلامية في صقلية وسيطرتهم على الحاضرة بلرم في اعقاب اتفاق مع المسلمين، هو ما جعل أنليز نيف (Annliese Nef) تذهب الى الاعتقاد "بانتفاء الروح الصليبية" في المواجهات التي دارت بين المسلمين والنورمان في صقلية خلافا لتلك التي دارت بين المسلمين والمسيحيين في أراضي المشرق الاسلامي[2].

ونعتقد أنها كانت محقة فيما ذهبت اليه. لأن الاخباريين الثلاث تحدثوا عن المواجهات التي دارت بين المسلمين والنورمان من وجهة نظر عسكرية محضة دون أن يعطوها حمولة دينية. وكان تناولهم لتلك المواجهات شبيها بتناول بعض اخباريي جنوب ايطاليا للمواجهات التي دارت بين المسلمين ومسيحيي بوليا وكلابريا خلال القرن التاسع للميلاد. ومن بين اولئك الاخباريين، اللومباردي ارشيمْبِرْتوس (Erchempertus)[3] الذي وضع اخبارية حوالي سنة 889 ميلادية تطرق في بعض فصولها لزحف المسلمين على بعض حواضر وقرى تلك المناطق. واكتفى بالحديث عما ترتب عنها من خسائر بشرية ومادية. كما تحدث أيضا عن بعض العمليات العسكرية التي قام بها سودان أمير باري على حساب جيرانه في منطقة بنڤنتو(Benevento). وأبدى إعجابه بشجاعته واصراره حتى كاد أن يفضله على لويس الثاني ملك الفرنجة الذي كان يقوم بدوره بعمليات عسكرية للسيطرة على بعض مناطق جنوب ايطاليا.

---

[1] - الكتاب الثالث (incipit tertius) من نص القصيدة (النسخة اللاتينية)، الأبيات من 154 الى 157.

[2] - أنظر كتابها:

Conquérir et gouverner la Sicile, pp. 21-22..

[3] - اخباري من أصل لومباردي. عاش خلال النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد. لا يعرف تاريخ وفاته سوى أنه كان حيا بعد سنة 890 ميلادية. وهو رجل دين من رهبان دير مونتي كاسينو. وضع اخبارية حوالي سنة 889 ميلادية. تعرف "بتاريخ لومبارديي بنفنت"

(Historia Langobardorum Beneventanorum). توجد نسخة لاتينية منها على موقع المكتبة اللاتينية الذي سبق أن أحلنا عليه.

وعلى كل، شكل النورمان والمسلمون والاغريقيون القوى الرئيسية التي دارت حولها الأحداث في صقلية بعد سنة 1060 ميلادية. وحضروا في الاخباريات الثلاث على النحو الذي أوضحناه بايجاز. بينما غاب اليهود عن تلك الأحداث لكونهم لم يكونوا طرفا رئيسا فيها. وبالتالي لم يحضروا في اخباريات المسيحيين كما لم يحضروا بشكل لافت في مصنفات الاخباريين المسلمين. ورغم ذلك، لا بأس من الاشارة بأنهم حضروا في مصنف أمَّتوس المُنتِكَّسِنوسي ثلاث مرات:

- حضروا مرة أولى حين تحدث عن محاولة نفر منهم تحويل فتاة مسيحية الى اليهودية. ولكنهم فشلوا في ذلك. وفسر فشلهم بكرامة حضرت الى جانب الفتاة فبقيت على دين آبائها[1].

- وحضروا مرة ثانية حين تحدث عن انتصارات النورمان في منطقة بوليا. فأورد في أكثر من موضع بعض نصوص الكتاب المقدس لتبرير تلك الانتصارات. ونبه القارئ بالمناسبة بأنه لا داعي للاستغراب من كون مائة فارس من الأعداء كانوا يفرون أمام فارس واحد من النورمان. "لأن الله كان يمد الفرسان النورمان بالقوة كما فعل مع بني اسرائيل حين أقاموا في أرض الميعاد فثبت أقدامهم ووعدهم بالنصر والتمكين"[2].

- وحضروا مرة ثالثة حين تحدث عن الحصار الذي ضربه القائد روبير گيسكار على مدينة سالرنو (Salerno) في أواخر سنة 1076 ميلادية. فتفشت المجاعة بين أهاليها. فاستحضر عندئذ اليهود قائلا بأنهم لاقوا نفس المعاناة سنة 70 ميلادية حين ضرب الرومان الحصار على القدس. وبعد اقتحامهم لها أخذ عدد من اليهود يعرضون أنفسهم للبيع تحت وطأة الجوع. فكان ثلاثون منهم يعرضون انفسهم مقابل "دنير" واحد[3].

وعلى غرار الاخباريات الثلاث السالف ذكرها، كان للمسلمين والمسيحيين حضور متميز في قصيدة مطولة وضعها مثقف مسيحي من جنوب ايطاليا. ويتعلق الأمر بالراهب ببتروس الإيبولي (Petrus de Ebulo) الشاعر والطبيب والاخباري المنحدر من مدينة ايبولو (Ebulo)[4] والمتوفى بعد سنة 1220 ميلادية. وقد اشتهر بوضعه لقصيدة مطولة

---

[1] - Ystoire de li Normant, Livre second, chapitre 37, pp. 93-94.

[2] - Ibid., chapitre 36, p. 93.

[3] - Ibid., livre huitième, chapitre 19, p. 338.

[4] - مدينة أزلية تقع بمقاطعة سالرنو (Salerno) جنوب ايطاليا. وصل اليها الأغالبة. وأضحت زمن بداية سيطرة النورمان على صقلية تابعة لقمطية سالرنو.

تقع في 1670 بيتا موزعة على ثلاثة أقسام ومرفقة بعدد كبير من الرسوم التوضيحية (des illustrations) والمنمنمات (des miniatures)[1].

وضع تلك القصيدة بين سنتي 1195 و1197 ميلادية. وخصص موضوعها لمدح وتخليد الملك هنري السادس الذي تولى حكم صقلية سنة 1194 ميلادية. وقد تناول فيها وقائع الحرب التي دارت رحاها بين هذا الملك وتانكريد الذي اغتصب السلطة بعد وفاة الملك غليوم الثاني. فتضمنت، على هامش تلك الوقائع، أحداثا كثيرة شهدتها صقلية بين فترتي حكم روجر الثاني وهنري السادس.

وتكمن أهمية القصيدة بالنسبة لموضوع هذا المبحث، في كون احدى المنمنمات المرافقة للنص تجسد بلاط الملك غليوم الثاني الذي يبدو منه باب رئيسي يفضي الى احدى الغرف الفسيحة التي يظهر فيها الملك مستلقيا على فراش الموت والى يساره طبيب بزي اسلامي يمسك بإناء ويتفحص عينة من بول الملك موجودة بذلك الاناء. وعند قدمي الملك عالم فلك يعاين حركة النجوم بواسطة أسطرلاب. بينما تجسد منمنمة أخرى جمهورا من عامة بلرم ينتحبون معبرين عن حزنهم وتأثرهم العميق بعد رحيل الملك.

تعكس المنمنمة الأولى مدى الاهتمام الذي كان يوليه الملك غليوم الثاني للعلم والعلماء والمعرفة بصفة عامة كما سنرى ذلك في الفصل الموالي. كما تعكس شهرته في استقطاب عدد كبير من الأعلام المسلمين والمسيحيين الكاثوليك والأورثوذوكس الذين كانوا يشتغلون تحت رعايته في انسجام تام بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية ومعتقداتهم الدينية.

وتعكس المنمنمة الثانية حضور الديانات الثلاث وكذلك حضور مختلف مكونات المجتمع الصقلي في الحياة العامة. وتجسد التعايش الذي كان حاصلا بينها زمن حكم

---

[1] - لا تحمل القصيدة عنوانا محددا. وتعرف لدى الباحثين باسم:

Liber ad honorem Augusti sive De rebus siculis

توجد نسخة من نصها بمفرده منشورة على موقع المكتبة اللاتينية:

http://www.thelatinlibrary.com

وقد تم نشرها مرفقة بالرسوم التوضيحية والمنمنمات في طبعات حديثة من بينها نسخة ألمانية صدرت ببرلين سنة 1994 ونسخة ايطالية صدرت بمدينة بوتنسا (Potenza) سنة 2020.

الملك الوارد ذكره. كما تجسد الرعاية والعطف اللذين كان يشملهم بهما. ولذلك تأثروا لفراقه.

وتمثل العقود التي كانت تبرم بين عامة الناس وكذلك المراسيم الصادرة عن القادة النورمان (حين كانوا أقماطا وبعد أن أصبحوا ملوكا) والوثائق الصادرة عن المؤسسات العمومية نوعا آخر من التآليف التي يتجلى فيها حضور الديانات الثلاث وحضور أتباعها.

ويمكن الوقوف على هذا الحضور في نماذج من العقود سبقت الاشارة اليها. ونعني بها النماذج العربية والاغريقية التي حققها ونشرها المستشرق الايطالي سلڤاطور كوزا (Salvatore Cusa) والنماذج اللاتينية الاغريقية التي حققتها ونشرتها الباحثة جوليا بيكر (Julia Becker).

ويتضمن الجزءان الذان يتألف منهما كتاب سلڤاطور كوزا عددا مهما من عقود البيع والشراء والمعاوضة التي تعكس حضورا ملفتا للاسلام وللمسيحية ولمعتنقيهما. على اعتبار أن أطرافها كانوا من عامة المسلمين والمسيحيين وعلى اعتبار أن بعضها مكتوب باللغة العربية وبعضها باللغة اللاتينية.

كما يتضمن الجزءان بعض الوثائق الصادرة عن المؤسسات العمومية متمثلة في مجموعة قرارات تعكس بدورها الحضور العربي- الاسلامي بقوة الى درجة أنها تترك الانطباع بأن طرق صياغة الوثائق لم تتغير وأن طرق التدبير والتسيير التي كان العمل جاريا بها إبان الحقبة الاسلامية ظلت مستمرة خلال الحقبة النورمانية.

ولا بأس من التذكير في هذا المجال بأن الملوك النورمان تبنوا تجربة المسلمين وتقليدهم في التدبير وكذلك في تنظيم الدواوين، حتى أن بعضها حمل أسماء عربية مثل "ديوان المعمور" وديوان التحقيق المعمور". ورغم أنهم أصبحوا يحكمون الجزيرة، لم يتبنوا اللغة اللاتينية على حساب اللغة العربية أو الاغريقية.

فحين كان زعماؤهم الأوائل مجرد أقماط في كلابريا وبعض مناطق صقلية كانت تصدر عنهم وعن المؤسسات المكلفة بتدبير الشأن العام باسمهم، وثائق مكتوبة باللغة اللاتينية وأخرى مكتوبة باللغة الاغريقية كما يتضح من النماذج الكثيرة التي حققتها ونشرتها جوليا بيكر (Julia Becker).

وحين أصبحوا ملوكا يحكمون جميع مناطق الجزيرة، أصبحت المراسيم الصادرة عنهم والوثائق الصادرة عن الدواوين تكتب بثلاث لغات: العربية واللاتينية والاغريقية.

كانت المراسيم والوثائق العمومية المكتوبة باللغة العربية موجهة للمسلمين واليهود (وان كتب عدد قليل منها بالعبرية). بينما كانت المراسيم والوثائق المكتوبة باللغتين الأخرتين موجهة للمسيحيين.

وما زال أمر صدور وثائق رسمية (عمومية) بثلاث لغات في احدى ممالك العصر الوسيط مثار إعجاب الباحثين المحدثين[1]. ولا شك أنه يحمل دلالات كثيرة في زمن كثر فيه الحديث عن التعايش بين الأديان والثقافات.

وتتجلى أهمية تلك الدلالات اذا ما علمنا بأن بلدا كالمغرب، ظلت الادارات العمومية فيه تصدر منذ الاستقلال وثائق باللغتين العربية والفرنسية. أما اللغة الأمازيغية التي يتحدث بها عدد كبير من سكان البلاد، فلم تأخذ طريق الترسيم الا منذ بضع سنوات وما زالت أجرأة هذا الترسيم متعثرة.

وما يهمنا فيما نحن بصدده، هو أن حضور الديانات الثلاث وحضور أتباعها تجسد في صقلية من خلال ثلاث لغات تحدث بها عدد من الملوك النورمان. كما أن تلك اللغات ظلت متداولة في الأوساط الرسمية وبين الموثقين المكلفين بتحرير عقود البيع والشراء والزواج حتى مطلع القرن الرابع عشر.

3) حضور معتنقي الديانات الثلاث في المؤلفات اليهودية

لا يمثل العطاء العبري اليهودي، في اعتقادنا، رافدا مهما في التراث الثقافي الصقلي الذي يهم الحقبتين الاسلامية والاغريقية كما هو الشأن بالنسبة للتراث الثقافي الأندلسي. وقد سبق أن عبر إحسان عباس عن هذه الحقيقة، على الأُقل بالنسبة للحقبة الاسلامية، حين كتب بصيغة الشك: "وربما كان لبعض هؤلاء اليهود نشاط علمي الى جانب نشاطهم المالي"[2].

---

[1] - أنظر في هذا الممقام ما أورده هنري بريسك وأنليز نيف في مداخلة تحت عنوان:
"Les actes en arabes dans la Sicile d'époque normande" in, L'autorité de l'écrit au Moyen Age (Orient Occidentà, actes du 39e congrès de la SHMESP, Editions de la Sorbonne, Paris, 2009, pp. 73-87. Et Jeremy Johns, Arabic administration in Noman Sicily. The royal diwan, Cambridge University Press, Cambridge 2002.

[2] - تاريخ العرب في صقلية، ص. 65.

ويبدو أن ثمة ما يبرر هذا الشك؛ لأن المكتبة الصقلية لا تتضمن مصنفات وضعها مثقفون يهود ولأن المصنفات التي وضعها عرب أو مسلمون لا تشير الى وجود مثقفين في اوساط الطائفة اليهودية. وخلافا لذلك تتضمن المكتبة الأندلسية مؤلفات يهودية. ولا شك أن الوجود العربي الاسلامي الذي دام بالأندلس ثمانية قرون سمح ببزوغ نجم عدد كبير من المثقفين اليهود الذين ساهموا بقسط وافر في البحث والتأليف. كما ساهموا في حركة الترجمة الى جانب المسيحيين المستعربين[1].

ولكن لا بأس من التنبيه الى حقيقتين. أولاهما أن عدم بروز مثقفين يهود خلال الحقبة التي حكم فيها المسلمون صقلية، لا يمنع من القول باحتمال وجود بعضهم. طالما أن عناصر منهم أضحى لها دور في دواوين روجر الثاني. ثم اتسع ذلك الدور ليشمل الحياة الثقافية في عهد فردريك الثاني. وثانيهما أن بعض حواضر جنوب ايطاليا بزغ فيها نجم بعض المثقفين اليهود تزامنا مع فترة سيادة المسلمين لصقلية.

ولعل من بين الحواضر التي سجلت اسمها في هذا المضمار أوريا (Oria) التي كانت تستوطنها طائفة يهودية نشيطة. بزغ من بين افرادها شبطاي دونولو (Sabbataï Donnolo) الذي تفقه في علوم الدين والدنيا واشتهر كطبيب[2] وأهيماز بن بلتيل أو بلطيال (Ahimaaz ben Palteil) الذي سبق أن أوردنا اسمه كإخباري في سياق الحديث عن اليهودية في صقلية.

وبناء عليه، تمثل اخباريته النموذج الوحيد الذي أمكننا الاعتماد عليه لتقديم فكرة عن حضور أتباع الديانات الثلاث في المؤلفات اليهودية رغم أنه كان مقيما بأوريا وليس في احدى حواضر صقلية. كما أن اخباريته لا تتناول سوى أحداث الفترة الممتدة بين سنتي 850 و1054 ميلادية.

ولا بأس من التنبيه بأن تلك الأحداث لم تَكن الموضوع الرئيسي الذي تناوله أهيماز. لأنه وضع الإخبارية أصلا للتأريخ لأسرته ولآل بلتيل عموما. ولذلك حررها

---

[1] - يمكن العودة في هذا الشأن لكتاب أحمد شحلان، التراث العبري اليهودي في الغرب الاسلامي. التسامح الحق، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، 2006.

[2] - أنظر عنه كتاب:

Shabba tai Donnolo's Sefer Hakhmoni, Studies in jewish history and culture, Edited by Hava Tirosh-Samuelson and Guiseppe Veltri, Mancuso , Piergabriele, 1975.

بالعبرية وتحدث فيها عن بعض من نبغوا منهم في حقلي الأدب والعلوم الدينية. وكانوا يزاولون أنشطتهم في جنوب ايطاليا وفي إفريقية.

ونستطيع القول، انطلاقا من هذه الإخبارية ومن اخبارية يهودي آخر يدعى سلمون بار سمسون (Solomon bar Simson)[1] كان مقيما بمدينة ماينز (Mainz) الألمانية خلال أربعينيات القرن الثاني عشر، بأن الفكر اليهودي ظل منشغلا طيلة العصر الوسيط بقضية الوجود والهوية. لأن اليهود وجدوا أنفسهم منذ القرن الأول للميلاد موزعين على شكل شتات يقيم في مختلف مناطق العالم القديم. ولم تكن علاقات هذا الشتات بالقائمين بالأمر في تلك المناطق دائما على أحسن ما يرام. كما شاب العداء أحيانا علاقاتهم بمجتمعات تلك المناطق. فانعكس ذلك سلبا على صورة الآخر في أذهان اليهود من المثقفين والعامة على حد سواء.

ويكفي التذكير بأن علاقة يهود جنوب ايطاليا بحكامها البيزنطيين شابها كثير من التوتر وفق شهادة أهيماز بن بلتيل. وبالمثل ظل التوتر يطبع علاقة يهود شبه جزيرة ايبيريا بملوكها الكاثوليك حتى قرروا طردهم نهائيا من شبه الجزيرة سنة 1492. أما في غالة (فرنسا) وجرمانيا، فإن المجتمع هو الذي ناصب اليهود العداء. وأصبحت العلاقة بين الطرفين موضوع شد وجذب منذ مطلع العصر الوسيط. وتعرض اليهود للتنكيل من قبل أفراد الأرستقراطية ومن قبل العامة عند انطلاق الحملة الصليبية الأولى حسب افادات سلمون بار سمسون الذي تطرق لمظاهر التنكيل الذي طال يهود ماينز[2].

وقد شاب التوتر أيضا علاقة اليهود بالمسلمين منذ عصر النبوة. ولكن تلك العلاقة أخذت تميل شيئا فشيئا نحو الود. كما حدث مثلا في بلاد المغرب والأندلس،

---

[1] - لا يعرف عنه شيئ سوى أنه كان مقيما في مدينة مينز (Mainz) الألمانية حوالي سنة 1140 ميلادية. وهي السنة التي وضع فيها اخبارية بالعبرية تحدث فيها عن التكيل الذي طال يهود تلك المدينة وحواضر أخرى في ألمانيا عند اندلاع الحملة الصليبية الأولى.

قام بتحقيق هذه الاخبارية وترجمتها الى الأنجليزية، الى جانب اخباريتين يهوديتين أخرتين، الباحثان:

- Shlomo Eidelberg, The Jews and the Crusaders. The Hebrew chronicles of the first and second crusades, Wisconsin, University Press, 1977.

- Robert Ghazan, God, Humanity and history. The hebrew first crusade narratives, Berkley, Los Angeles, London, University of California Press 2000.

[2] - أنظر نص اخباريته في كتاب شلمو أيدلبرگ (Shlomo Eidelberg) السالف الذكر، ص.ص. 21-72.

.

حيث عاش اليهود مع المسلمين في وئام انعكس ايجابا على الفكر اليهودي الذي شهد أزهى عصوره خلال عصر الخلافة.

ومن ثم، فإن تاريخ اليهود يكاد يختزل في العلاقات التي كانت تربطهم بأتباع الاسلام والمسيحية. ومعناه أن حضور هاتين الديانتين وحضور أتباعهما كان قويا على الدوام في المؤلفات اليهودية بغض النظر عن الحقل المعرفي الذي تنتمي اليه.

ويبدو أن حضور الاسلام والمسلمين في مؤلفات يهود الأندلس كان حضورا ايجابيا كما أقر بذلك بعض الباحثين المعاصرين[1]. والراجح أن الانطباع ذاته كان يتقاسمه المثقفون اليهود في شبه جزيرة ايطاليا حسب المعلومات التي أوردها أهيماز السالف الذكر. فقد اشار في اخباريته الى كون بعض أعلام عائلته خدموا الخلفاء الفاطميين. كما ذكر بأن المسلمين، الذين سماهم "بالاسماعليين" اكتسحوا عدة حواضر وقرى في منطقتي كلابريا وبوليا. وذكر بأن عددا من أفراد الجالية اليهودية لقوا حتفهم في تلك الحملات[2]. ولم يتخذ بمناسبة اثارتها موقفا شخصيا من المسلمين أو موقفا باسم الطائفة اليهودية. بل ذكر عند الحديث عن استعداد مسلمي امارة باري لمهاجمة مدينة أوريا، بأن الحاخام المدعو شفتياح بن أمتاي (Shephatiah ben Amittai) هو من تحمل القيام بمهمة الوساطة بين حاكم المدينة البيزنطي والمسلمين. فتوجه الى باري وقابل الأمير سودان لثنيه عن القيام بأي هجوم[3]. ولكن الأمير لم يفصح للمبعوث عن موقفه بوضوح. فوسمه المبعوث "بالمكر والخداع". ودلل ذلك بكون الأمير رحب بالوفد وأبدى استعداده للتخلي عن مهاجمة أوريا. ولكنه كان "يبيت عكس ما كان يتظاهر القيام به"[4].

ويروي أهيماز بأن الأمير سعى بأن يمكث الوفد في باري تلك الليلة حتى تتمكن قواته من القيام بالهجوم الذي أعدت له. ولكن المبعوث اليهودي تفطن للحيلة. وتمكن من التملص من الأمير والفرار الى أوريا. فنادى في أهلها عند وصوله بأن يخلوا ديارهم. وذلك ما حدث. فحين وصلت اليها قوات الأمير سودان وجدتها خالية من السكان.

---

[1] - من بينهم على سبيل المثال لا الحصر، أحمد شحلان الذي أحلنا على كتابه في هامش سابق.

[2] - أنظر اخباريته في كتاب:

Robert Bonfil, History and Folklore in a Medieval Jewish Chronicle, p. 272, paragraph, 19 and paragraph 20

[3] - نفس المصدر ونفس الصفحة.

Robert Bonfil, History and Folklore in a Medieval Jewish Chronicle, p. 357.

[4] - نفس المصدر، ص. 274، فقرة 21.

وعلى كل، لا تتضمن اخبارية أهيماز أية صورة من صور العداء تجاه المسلمين. وقد طبع الايجاب أيضا حضور مسيحي جنوب ايطاليا وفق المعلومات الواردة في اخباريته.

ولا غرو في ذلك، فقد كانت العلاقات ودية بين المسيحيين الاغريقيين والمسيحيين اللومبارديين والطوائف الأخرى المسلمة واليهودية. وحين حط النورمان الرحال بتلك الحواضر نسجوا علاقات ودية مع جميع الطوائف بما فيها الطائفة اليهودية. وظلت كذلك بعد أن استلموا حكم صقلية. وقد أقر ملوكهم اليهود على دينهم كما ذكرنا فيما مضى. وسمحوا لهم بممارسة الشعائر كما فعل المسلمون من قبل. وسمحوا للمثقفين منهم بالإسهام في الحركة الفكرية التي قامت منذ عهد روجر الثاني. رغم انه لم تبرز من بينهم اسماء كالأسماء التي برزت في الأوساط العربية والاغريقية. ولكن وجودهم أضحى لافتا للانتباه في بلاط فردريك الثاني وفي بلاط خلفه منفريد. ومن هنا نفهم لماذا تفرد حضور مسيحي صقلية بالايجاب في مؤلفات يهود شبه جزيرة ايطاليا مقارنة مع حضور مسيحي شبه جزيرة ايبيريا أو غالة في مؤلفات مثقفين يهود آخرين.

ومهما يكن من أمر، نعتقد أن المعطيات التي تضمنتها الصفحات السابقة، تمكن من الوقوف عند بعض مظاهر حضور الديانات الثلاث ومعتنقيها في بعض المصنفات الإسلامية والمسيحية واليهودية وفي المراسيم الملكية والوثائق الادارية والعقود والوثائق الخاصة وغيرها.

ويمكن في ضوء تلك المعطيات ابداء ملاحظتين:

أولاهما أن حضور الديانات الثلاث وحضور أتباعهما طبعه الايجاب في المؤلفات التي تناولناها لأنها عكست واقعا اجتماعيا مركبا كانت الطوائف الدينية تتفاعل على منصته و تتعامل فيما بينها بغض النظر عن انتماءاتها كما سنرى بعد حين.

ثانيهما أن حضور الاسلام والمسيحية وأتباعهما كان لافتا في تلك المؤلفات كما كان لافتا في المراسيم والوثائق والعقود على اعتبار أن الاسلام والمسيحية كانا أقوى ديانتين في صقلية خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية وعلى اعتبار أن المسلمين والمسيحيين كانوا أقوى الفاعلين في تاريخ الجزيرة السياسي والعسكري والديني والفكري. وكانوا أقوى الفاعلين في العطاء الحضاري الذي قدمته للبشرية.

ونستطيع القول في نهاية المطاف بأن ذلك الحضور لم يأت انطلاقا من كون واضعي تلك المؤلفات وواضعي المراسيم والوثائق والعقود وغيرها كانوا على دراية بمبادئ التعايش والتثاقف والتساكن كما هي معروفة اليوم ومسطرة في المواثيق الدولية، وإنما لأنهم نقلوا صورة عن مجال جغرافي تفاعل في حدوده أفراد متعددو الانتماءات الاثنية واللغوية والدينية. ولأنهم كانوا يتبنون عموما فكرا منفتحا غير قائم على نبذ أو اقصاء الآخر.

ثانيا: تجليات التعايش من خلال التجاور في السكن والاشتراك في الحياة العامة

يمثل التجاور في السكن بين أتباع مختلف الديانات واشتراكهم في الحياة العامة أهم مظاهر التعايش في صقلية زمن سيادة المسلمين والنورمان. ولكن المصادر الاسلامية لا توفر مع الأسف معطيات كثيرة تسمح باستعراض هذه المظاهر بشكل مستفيض رغم أنها تتيح امكانية القول بالفكرة. وهو قول تزكيه المادة الغنية التي توفرها المصنفات المتعلقة بالأندلس.

1) التجاور في السكن

تتمثل أولى المعطيات التي تسمح بالحديث عن تجاور في السكن بين معتنقي الديانات الثلاث فيما أورده ابن حوقل عن بلرم عند زيارته لصقلية سنة 362 هـ/973 م. فقد ذكر بأن هذه الحاضرة مستطيلة الشكل وتتكون من "مدينتين"[1]: تسمى الأولى "مدينة الخالصة" وتقع على ساحل البحر. وهي مدينة مستحدثة من قبل المسلمين يحيط بها سور من حجارة. يقع في قسم منها قصر السلطان ومقرات اقامة أتباعه. وتقع في قسم آخر منها ثكنات جيش السلطان ودار صناعة المراكب البحرية والديوان. ويوجد بها مسجد جامع صغير الحجم وحمامان ولا توجد بها أسواق. وتسمى الثانية بلرم. يحيط بها سور شامخ من حجارة. وتقع بداخلها "المدينة القديمة". وتحيط بالخالصة وبلرم،

[1] - أنظر كتاب صورة الأرض الذي سبقت الاحالة عليه، ص. 113 وما يلها.

مجموعة حارات يمتد بعضها على طول أنهار تخترق المجال الحضري. من بينها "حارة الصقالبة" و"الحارة الجديدة" و"حارة أبي جمين" و"حارة المسجد" و"حارة اليهود".

لا توجد "فواصل" بين تلك الحارات حسب افادات ابن حوقل. ولا تحيط بأي منها أسوار رغم أن لكل واحدة أبوابا يفضي بعضها الى الحارة المجاورة. من بينها "باب السودان" الواقع تجاه الحدادين و"باب الحديد" الذي منه المخرج الى "حارة اليهود". ومنها باب لا يحمل اسما يفضي الى "حارة أبي جمين"[1].

وبناء على هذا الوصف، فإن المدينة الثانية، أي بلرم، كانت تتألف من بلرم القديمة ومن عدة حارات. كانت بلرم القديمة، أي النواة البيزنطية، تضم دورا خاصة بالمسيحيين. وكانت تضم أربع حارات خاصة بالمسلمين وحارة خامسة خاصة باليهود.

كانت الحارات شبه متصلة كما ذكرنا بما فيها حارة اليهود التي كانت تقع بها مساكنهم وكذلك الكنيس الذي كانوا يرتادونه لاقامة شعائرهم الدينية. وذلك على غرار بعض مدن الغرب الاسلامي الوسيط التي كانت تتواجد بها جالية يهودية كثيرة العدد مثل مدينة فاس. فقد كان اليهود يقيمون فيها زمن الأدارسة بمجمع قريب من بلاط الأمير ادريس الثاني[2]. ثم أصبحوا يقيمون في عهد المرينيين "بحي الملاح" الواقع بمحاذاة أحياء "مدينة فاس الجديد" التي شيدت في عهد السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق.

ورغم أن تمركز اليهود في "ملاح" فاس الجديد او في "حارة اليهود" في صقلية يوحي بأن الطائفة اليهودية كانت هنا أو هناك تقيم بمعزل عن الطائفتين المسلمة والمسيحية، فالواقع أن الأمر كان عكس ذلك. لأن اليهود كانوا صلة الوصل بين جميع الطوائف بالنظر لاشتغال عدد منهم في صناعة الحلي والمجوهرات التي كانت تقتنيها نسوة مسلمات ومسيحيات في مدينة فاس أو في مدينة بلرم. وبالنظر ايضا لكون عدد منهم كانوا يمارسون التجارة وكان يتعامل معهم مسلمون ومسيحيون. ومن ثم، نعتقد بأن مراكز سكناهم كانت مجرد مقرات إقامة كما هو الشأن اليوم في المدن المعاصرة، حيث يقيم أثرياء المدينة في حي راق خاص بهم كما يقيم عدد من الطلبة في "حي جامعي"

---

[1] - نفس المصدر، والصفحة.

[2] - عبد الحميد حسين حمودة، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي حتى قيام دولة الفاطميين، الدار الثقافية للنشر، القاهرة 2007، ص. 377.

خاص بهم دون أن يعني ذلك أن الأثرياء أو الطلبة يقيمون بمعزل عن سائر سكان المدينة.

والظاهر أن التجاور أو التقارب في السكن بمدينة بلرم تواصل خلال سيادة النورمان لصقلية حسبما يتضح مما أورده الادريسي في وصفه لهذه المدينة ولمدينة كتانيا.

فقد ذكر أن بلرم "مدينة سنية عظمى ومحلة بهية كبرى"[1] تتألف من قسمين: "قصر وربض". القصر القديم الذائع الصيت. وهو عبارة عن قلعة منيعة تتألف من "ثلاث أسمطة" تضم مباني فخمة وفنادق وحمامات ومساجد وحوانيت كبار التجار. أما الربض، فهو مدينة أخرى في حد ذاتها يحيط بها سور وخندق. ويضم "مدينة الخالصة" التي تحدث عنها ابن حوقل. كما يضم حسب الادريسي، ديارا وفنادق وحمامات وحوانيت وأسواقا. وتتخلل هذه المنشآت متنزهات وبساتين.

وذكر كذلك أن مدينة كتانيا "شامخة القدر عالية الذكر (...) بها الأسواق العامرة والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والحمامات والمنازل والخانات". اشتهرت بفيل مصنوع من الحجر "كان منصوبا على بناء شاهق في سالف الزمان ثم نقل الآن فنصب بكنيسة الرهبان"[2].

ويفيد هذا القول بأن المدينة كانت تضم الكنيسة الوارد ذكرها، وربما كنائس أخرى، الى جانب المساجد والجوامع. ولاشك أن المسافة بين بعض هذه المؤسسات الدينية كانت قصيرة. وهذا ما يستشف من كلام ابن جبير الذي يذكر بأن مدينة اطرابنش يسكنها "مسلمون ونصارى. ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس"[3].

ومن المفيد الاشارة الى أن بعض مسلمي ومسيحيي ويهود قرطبة كانوا يقيمون في دور متقاربة وفق افادات القاضي المفتي أبي الأصبغ عيسى بن سهل[4]. فقد أورد في

---

[1] - أنظر كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الثاني، ص. 590 وما يليها.

[2] - نزهة المشتاق، المجلد الثاني، ص. 597.

[3] - رحلة ابن جبير، ص. 308.

[4] - من أبرز القضاة والمفتين في قرطبة. توفي 486 هجرية. اشتهر بكتاب في الافتاء يعرف بديوان الأحكام الكبرى أو الاعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام.

كتاب "الأحكام الكبرى"[1] مسألة تداولها ثلة من الفقهاء المشاورين من بينهم ابن لبابة[2] في موضوع وكيل يتيم أراد بيع دار يملكها ذلك اليتيم "لقربها من دور اليهود"[3]. وعلى غرار ابن لبابة، طرحت على أنظار ابن سهل مسألة استفتاه في موضوعها رجل يسمى "حسان بن عبد الله. "كانت له دار بقرطبة بحومة مسجد صواب تلاصق دارا أخرى موقوفة على شنوغة اليهودي"[4].

واذا كانت المسائلتان السالف ذكرهما تهمان قرطبة وتتعلقان بدور يقيم بها مسلمون تجاور دورا يقيم بها يهود، فمن المحتمل أن تكون دور بعض مسلمي بلرم وكتانيا واطرابنش، قريبة من الدور التي يقيم بها مسيحيون، حتى وان لم يكن بعضها ملتصقا ببعض.

وما نذهب اليه يستشف من بعض عقود البيع التي نشرها سلفاطور كوزا في موضوع دور، تقع في بلرم وغيرها، اشتراها مسيحيون ومسيحيات من بعض ملاكيها المسلمين والمسلمات.

من قبيل عقد، موقع في أوائل شوال 578 هجرية / يناير1183 ميلادية. اشترت بموجبه "دامة برغريطة النصرانية بنت الراهبة الكرنتية من مسعود بن تامر القرشي النصف مما سيذكر ومن ولده عبد السلام النصف الباقي من الدار التي في أيديهما وتحت ملكهما (...) وهي من أرض صقلية بالربض القبلي من مدينة بلرم"[5]. وعقد موقع في بحر شهر شعبان 586 هجرية / شتنبر 1190 ميلادية. اشترى بموجبه "نقولة أشقر خديم القصر المعمور من زينب بنت عبد الله الأنصاري (...) جميع الدار التي من أرض صقلية وبداخل القصر القديم وبالقرب من باب السودان"[6]. وعقد موقع خلال العشر

---

[1] - اهتم بتحقيق هذا الكتاب عدد من الباحثين. من بينهم الباحث المصري يحي مراد الذي حققه ونشره تحت العنوان السالف الذكر ضمن اصدارات دار الحديث بالقاهرة سنة 2007.

[2] - هو أبو.عبد الله محمد بن عمر بن لبابة. كان من كبار الفقهاء العارفين بالأحكام في قرطبة. توفي سنة 314 هجرية..

[3] - أنظر كتاب ديوان الأحكام الكبرى، ص. 104. نشير الى أن النازلة توضح بأن "اليتيم" لم يرد بيع الدار لكونها مجاورة لدور يقطنها اليهود. ولكن لأن الموقع الذي كانت توجد به تلك الدور كانت تباع به الخمور. فرغب "اليتيم" في بيعها والرحيل من الحومة الواقعة بها.

[4] - ديوان الأحكام الكبرى، ص. 493.

[5] - نفسه، عقد رقم 8، ص. 491.

[6] - أنظر كتاب سلفاطور دي كوزا السالف الذكر، الجزء الأول،عقد رقم 25 ، ص. 44.

الأوائل من شهر ربيع الأول 589 هجرية / العشر الأوائل من شهر مارس 1198 ميلادية. اشترى بموجبه "جيلوا النصراني من ابراهيم بن محمد القرشي (...) جميع الدار الذي في يديه وحوزه وعلى ملكه بقلعة قصريانة صقلية وبالموضع المعروف منها بحارة اسقلابة"[1].

والظاهر أن أولئك المسيحيين والمسيحيات اشتروا تلك الدور للاقامة بها لا لاعادة بيعها لمسلمين آخرين. وومعنى ذلك أن بعض دور المسيحيين كانت ملاصقة لدور يقيم بها مسلمون. ونميل الى هذا الرأي لأن ما تفصح عنه تلك العقود يتعارض مع ما يذهب اليه ابن جبير الذي يذكر في معرض حديثه عن بلرم، بأن للمسلمين فيها "أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى"[2].

ومهما يكن من أمر، فكلام ابن جبير لا يفيد بأن ارباض المسلمين كانت منعزلة تمام الانعزال عن المجمعات السكنية التي كان يقيم فيها المسيحيون. على اعتبار أن المسلمين والمسيحيين كانوا يشكلون غالبية سكان بلرم والمدن الأخرى وعلى اعتبار أن المجمعات السكنية كانت تقع في "حارات" و"أسمطة" مندمجة كما يقول بذلك الادريسي وعلى اعتبار أن الحاضرة بلرم وكتانيا واطرابنش وكذلك المدن والحصون والقلاع الأخرى كانت محاطة بأسوار ولم تكن توجد مجمعات سكنية خارجها.

ونعتقد عموما بأن المجمعات السكنية كانت متقاربة في الحواضر. ولا شك أن التقارب كان قائما أيضا ين الدور الواقعة في الحصون والقلاع.

فيفيدنا الادريسي بأنه على بعد "مرحلة" الى الشرق من مدينة بلرم، تقع "قلعة ثرمة". وهي كبيرة الحجم يحيط بها سور. يوجد بها حصن و"حمتان متقاربتان" و"أبنية أزلية". وتقع بالجهة الغربية من بلرم "محلة" مسماة "بالتربيعة" تخترقها مجاري مائية وتتخلها بساتين يانعة. وعلى بعد "اثنى عشر ميلا" منها، يقع "حصن بورقاد" الذي تتدفق به هو الآخر مياه عليها أرجاء وبساتين ومرافق مختلفة. وعلى بعد "اثنى عشر ميلا" كذلك، تقع "صخرة الحديد" التي تعد "منزلا صغير الحجم". ويقع على بعد "مرحلة خفيفة" منها، "حصن جفلودي" الذي يكاد يكون مدينة صغيرة لكثرة أسواقه التي يرتفق منها أهل الحصن والمسافرون الذين يحطون بكثرة في مرفئه.

---

[1] - نفسه، عقد رقم 11، ص. 496.

[2] - أنظر رحلته، ص. 273.

واذ لم يفصح الادريسي عن هوية أهل الحصون والقلاع الوارد ذكرها وغيرها، فالراجح أنهم كانوا من المسلمين ومن المسيحيين وربما أيضا من عدد قليل من اليهود.

وهذا ما يؤكده ابن جبير حين يذكر بأن جزيرة صقلية كانت معمورة ابان زيارته لها "بعبدة الصلبان يمشون في مناكبها ويرتعون في أكنافها والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم"[1]. ويتضح بأن المسلمين الوارد ذكرهم كانوا بمثابة أقنان يعملون في تلك "الأملاك والضياع" لحساب المسيحيين. ينتفعون بحصة من المنتوج ويؤدون "إتاوة في فصلين من العام كما يذكر ابن جبير.

ومن المحتمل جدا أن هذه الفئة من عامة المسلمين وكذلك فئة من المسلمين، الذين كانوا فيما مضى ينتمون للأرستقراطية العربية، وظلوا يملكون ضياعا خلال عهد النورمان، كانوا يقيمون في دور غير بعيدة عن دور المسيحيين في حصون وقلاع صقلية . ولا شك أيضا أن ضياع كبار ومتوسطي الملاكين العقاريين من المسلمين والمسيحيين كانت متجاورة. فقد ذكر ابن جبير أنه غادر ورفاقه بلرم في اتجاه مدينة أطرابنش لامتطاء مركب، فعبروا مسلكا تمتد عبره "قرى متصلة وضياع متجاورة"[2].

ومن المرجح أن مالكي تلك الضياع والفلاحين المشتغلين بها كانوا من المسلمين ومن المسيحيين. وأن منتوجات تلك الضياع كانت تعرض في اسواق تلك القرى. يعرضها باعة مسلمون ومسيحيون ويقبل على اقتنائها مستهلكون مسلمون ومسيحيون. فيلتقون في أسواق تلك القرى والحصون والقلاع. وهذا ما يستشف من كلام ابن جبير حين يذكر في معرض حديثه عن قلعة ثرمة التي لم يحدد الادريسي هوية سكانها، "بأن للمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد"[3]. ويضيف بأنه سار وبعض مرافقيه في احدى طرق ثرمة، فكانت كأنها سوق لكثرة ما يعبرها من بضائع صادرة وواردة وكثرة عابريها من المسيحيين الذين كانوا يلتقون به وبرفاقه فيبادرون بتحيتهم ومؤانستهم[4].

---

[1] - رحلة ابن جبير، ص. 297.

[2] - نفس المصدر، ص. 307.

[3] - نفس المصدر، ص. 302.

[4] - نفس المصدر ونفس الصفحة.

2) الاشتراك في الحياة العامة

تتضمن المصنفات الأندلسية فيضا من المعلومات حول الحياة الاجتماعية يمكن من خلالها رصد مظاهر التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

وانطلاقا من كون المسلمين والمسيحيين كانوا يشكلون الغالبية، فقد تجلت تلك المظاهر في ظاهرة الزواج المختلط والاشتراك في إحياء عدد من الأعياد الدينية والحفلات. فكان كثير من المسلمين يحتفلون ببعض أعياد المسيحيين وكأنها أعياد اسلامية. فأنكر عليهم الطرطوشي هذا الأمر ورأى فيه بدعة من خلال قوله:" ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان. وكذلك على اقامة ينير (يناير) بابتياع الفواكه كالعجم وإقامة العنصرة وخميس أبريل بشراء المجبنات والاسفنج، وهي من الأطعمة المبتدعة. وخروج الرجال جميعا أو شتاتا مع النساء مختلطين للتفرج. وكذلك يفعلون في أيام العيد ويخرجون للمصلى ويقمن فيه الخيام للتفرج لا للصلاة"[1].

وخلافا لذلك، لا تمدنا المصنفات الصقلية، اسلامية كانت أو مسيحية، بمعطيات حول الحياة الاجتماعية نستطيع من خلالها معرفة ما اذا كان أتباع الديانات الثلاث يتزاوجون فيما بينهم أو يشتركون في الاحتفاء بالأعياد والمناسبات على غرار أهل الأندلس.

ورغم هذا العائق، نستطيع القول انطلاقا من الاشارات القليلة التي يتضمنها كتاب "صورة الأرض"، بأن الزواج المختلط كان ساري المفعول في صقلية. رغم أن ابن حوقل جعله من تقاليد طائفة خاصة من المسلمين سماهم "بالمشعمذين"[2]. وذكر بأنهم كانوا يمثلون "أكثر أهل الحصون والبادية والضياع"[3]. وكانوا يرون أن ما ينتج عن هذا الزواج المختلط من ذكور يلحقون بآبائهم. وما ينتج من اناث يلحقن بأمهاتهن النصرانيات[4]. بينما تتضمن رحلة ابن جبير اشارات تفيد بأن مسلمي ومسيحيي الجزيرة كانوا يشتركون، على العموم، في احياء الأعياد والمناسبات. أو على الأقل كان بعضهم يشارك فيها بالحضور وإبداء علامات البهجة والحبور.

---

[1] - أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (توفي سنة 530 هـ)، كتاب الحوادث والبدع، ضبط نصه وعلق عليه علي بن حسن الحلبي الأثري، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام-الاحساء، 1990، ص ص. 150-151..

[2] - كتاب صورة الأرض، ص. 123.

[3] - نفس المصدر والصفحة.

[4] - نفس المصدر والصفحة.

فقد حدث أن تصادف وجوده ببلرم مع قرب حلول السنة الميلادية 1184 الموافقة لسنة 580 هجرية، فأقام مسيحيو الحاضرة حفلا ليلة السادس والعشرين من شهر دجنبر على غرار جميع مسيحيي العالم القديم. فوصف الحفل بكونه كان بهيجا أقيم "بكنيسة الأنطاكي البديعة البنيان". وتحدث عن زخرفها ورونقها مستعملا ضمير المتكلم "أبصرنا". ثم انتقل من وصف الكنيسة للحديث عن المحتفلين. فركز على النساء منهم قائلا بأنهن خرجن الى الكنيسة المذكورة والى غيرها مرتديات أفخر ما لديهن من لباس وحلي ومتزينات ومتطيبات بالعطر على غرار النساء المسلمات[1].

ورغم أنه لم يشر من قريب أو من بعيد لمن حضر معه الحفل من المسلمين، فنعتقد أن قوله "أبصرنا" يفيد بأن رفاقه حضروا معه الحفل. ولا شك أن نفرا من مسلمي المدينة كانوا يتابعون مجريات الحفل وأن حضور مثل تلك الحفلات لم يكن ممنوعا عليهم.

وما يتيح امكانية القول بحضور المسلمين أو المسيحيين في الحفلات التي كانت تقيمها هذه الطائفة أو تلك ما ذكره عن عيد الفطر. فقد حل في وقت كان فيه ورفاقه يقيمون في مدينة اطرابنش ويستعدون لمغادرة صقلية. فأدوا صلاة العيد "في أحد مساجدها مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر كان لهم"[2]. ولاحظ بعد الخروج من المسجد أن أهل البلد "خرجوا الى مصلاهم مع صاحب أحكامهم. وانصرفوا بالطبول والبوقات. فعجبنا من ذلك ومن إغضاء النصارى لهم عليه"[3].

ولا بأس من الإضافة في هذا المقام، بأن قول ابن جبير بأن النساء المسيحيات خرجن الى الكنائس مكتسيات ومتزينات على غرار النساء المسلمات، يفيد بوجود انفتاح وتأثير وتأثر بين المسلمين والمسيحيين في الملبس والمأكل والمشرب.

وتؤكد الجداريات التي تزين بعض المعالم الكبرى في صقلية كقصر الملوك النورمان وكاتدرائية البلاط وغيرهما هذا التأثير والتأثر. لأن عددا من الرسوم يجسد مشاهد قنص. كما أن بعضها يجسد رجالا يرتدون عمائم فوق رؤوسهم على غرار المسلمين المشارقة.

---

[1] - رحلة ابن جبير، ص. 307..

[2] - نفس المصدر، ص. 310.

[3] - نفس المصدر، ونفس الصفحة.

ومن الواجب التذكير في هذا الشأن، بأن الملك روجر الثاني يبدو وكأنه من ملوك الشرق من خلال "البورتري" الذي ظلت تتداوله مختلف المصنفات عبر العصور والذي يظهره مرتديا ذلك المعطف المطرز الشهير على غرار الملوك والسلاطين المسلمين. ومما لا شك فيه أن شكل المعطف وما يحمله من تطاريز وكتابات أمر يؤكد مدى تأثر مرتديه وتأثر معظم الملوك النورمان بالتقاليد الاسلامية وبثقافة الشرق. ومن المحتمل أن عددا كبيرا من مسيحيي الجزيرة اقتدوا بأولئك الملوك انطلاقا من المبدا القائل: "الناس على دين ملوكهم".

ثالثا: تجليات التعايش على المستوى السياسي

مما لا شك فيه أن أبرز تجليات التعايش السياسي تتجلى في "بورتري" روجر الثاني الذي وضع غداة تتويجه ملكا. اذ يظهر فيه في صورة ملك مسيحي في زي عربي يحمل فوق رأسه تاجا بيزنطيا. ويختزل المعطف الذي ارتداه بمناسبة حفل التتويج لوحده صور التعايش بكل المقاييس. فهو معطف مصنوع من حرير، مطرز بخيوط ذهبية، مرصع بأحجار كريمة ومكتوبة على حاشيته عبارات عربية بخط كوفي ومزينة برسوم لبعض الحيوانات كالأسود والجمال ورسوم أصناف من الأشجار. فضلا عن بعض الرموز والأشكال كالنجوم والمربعات. وتحيل تلك الرسوم والرموز الى ثقافة العالم القديم الاسلامية والمسيحية والفارسية واليهودية.

ومن المحتمل أن تكون الصورة التي يبدو بها روجر الثاني وكذلك هوية المملكة والسياسة التي انتهجها، من الأمور التي جعلت المؤرخ الألماني هوبرت هوبن (Hubert Houben) يتحدث عنه "كحاكم" متأرجح بين الشرق والغرب[1]. بينما احتارت الباحثة كارين بريت (Karen Britt) هل تلقبه "بالملك أو الأمبراطور أو الخليفة؟". فقرنت اسمه بالألقاب الثلاث في صيغة استفهام في عنوان بحث تحدثت فيه عن المصلى الكنسي الذي شيده بقصر بلرم[2].

---

[1] - Roger II. von Sizilien. Herrscher zwischen Orient und Okzident, Wissen- schaftliche Buchgesellschaft, Darmstadt 1997.

صدرت ترجمته الأنجليزية سنة 2002 تحت نفس العنوان:

Roger II of Sicily. A ruler between east and west, Cambridge, Cambridge University Press, 2002.

[2] - Karen C. Britt , "Roger II of Sicily: Rex, Basileus and Khalif ? Identity, politics and propoganda in the Cappella palatina" , in Mediterranean Studies, Vol. 16, 2007, pp. 21-45.

وتتضح بعض جوانب هذا الاشكال الذي وجد الباحثان نفسيهما أمامه، اذا علمنا بأن روجر الثاني حمل لقب "ملك" (Rex) الذي ليست له أية دلالة دينية مسيحية أو اسلامية. كما كان يقيم في قصر جمعت هندسته وزخارفه بين تقاليد الشرق الاسلامي والبيزنطي وتقاليد الغرب المسيحي واستعان بخدمات رجال مسلمين ورجال مسيحيين أورثوذوكسيين وكاثوليك وأحاط نفسه بالجواري والغلمان...

واستمرت تلك التجليات زمن حكم غليوم الثاني الذي كان يحيط به في القصر جيش من الغلمان والجواري كما كان يفعل الخلفاء العباسيون وخلفاء بني أمية في الأندلس. وكان يعتمد في تصريف أموره الخاصة والعامة على عدد من المسلمين حسب شهادة ابن جبير اذ يقول: "كان كثير الثقة بالمسلمين وساكنا إليهم في أحواله (...) له منهم جملة كبيرة. هم أهل دولته والمرتسمون بخاصته"[1].

ويمكن في اعتقادنا اعتبار تلك التجليات من مظاهر التعايش الذي بدا أيضا على مستوى نظم الحكم. فقد كانت الدواوين والمؤسسات منظمة على شاكلة دواوين ومؤسسات ممالك بلاد المغرب كما ذكرنا من قبل. وكانت تحمل أسماء عربية. نذكر من بينها "ديوان المعمور" و"ديوان التحقيق المعمور". وكانت تصدر عن الملوك وعن تلك الدواوين والمؤسسات مراسيم وقوانين مكتوبة بالعربية واللاتينية والإغريقية. وكان الساهرون على تدبيرها والمكلفون بالإنشاء والكتابة فيها من معتنقي الديانات الثلاث. كما كان يحضر عملية توقيع بعض العقود، شهود مسلمون وآخرون مسيحيون[2].

ويفيدنا عزيز احمد فيما يتعلق بنظم الحكم في صقلية زمن سيادة النورمان، أن رؤساء أقاليم المملكة كانوا من المسلمين ومن المسيحيين (يونانيون ولاتينيون). وكان هؤلاء الرؤساء كذلك أعضاء في المجلس الأعظم الذي يرأسه الملك ويضم كبار رجال الكنيسة اللاتينية والأرثوذوكسية[3].

وتتضمن رحلة ابن جبير معطيات تؤكد بأن بعض الزعامات المحلية من المسلمين، كان لها دور كبير في بعض الأقاليم. فقد تحدث عن المسمى أبو القاسم بن حمود. ونعته بكونه "سيد المسلمين وقائدهم"[4].

---

[1] - أنظر رحلة ابن جبير، ص. 298.

[2] - أنظر أسماء بعضهم في نماذج من العقود التي يتضمنها كتاب سلفاطور كوزا السالف الذكر.

[3] - عزيز أحمد، تاريخ صقلية الاسلامية، مرجع سبق ذكره، ص. 75.

[4] - أنظر رحلة ابن جبير، ص. 279.

ويبدو أن نفوذ أبي القاسم هذا كان قويا في الجزيرة حتى أن مدينة أطرابنش "ارتجت عند وصوله اليها" لمقابلة غليوم الثاني. وكان قبيل تلك المقابلة تحت "الحجر" بتهمة "التخابر" مع الموحدين سادة المغرب الأقصى والأندلس. ثم عفى عنه الملك النورماني ودعاه لمقابلته.

وعموما كان الملوك النورمان نورمانديي الهوية، صقليي الموطن، مشرقيي الهوى في زيهم وفي طرق تدبيرهم لشؤون الحكم وفي تعاملهم مع مسلمي الجزيرة وفي علاقتهم مع ملوك مشرق دار الاسلام وفق شهادة ابن واصل الحموي الذي زار صقلية في شهر رمضان سنة 659 هجرية / غشت 1261 ميلادية. فقال: "رأيت صقلية لما توجهت إليها رسولا من جهة السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس –رحمه الله- الى ولد الإمبراطور هذا المسمى منفريدا. وكان الامبراطور- من بين ملوك الافرنج- فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب مائلا للمسلمين لأن مقامه في الأصل ومرباه في صقلية. وهو وجده وأبوه كانوا ملوكها. وأهل تلك الجزيرة غالبهم المسلمون"[1].

فيبدو وكأن ابن واصل يريد أن يقول بأن ميل الملوك النورمان للمسلمين واعتمادهم عليهم في ممارسة السلطة وفي الدفاع عن حوزة المملكة، أمر طبيعي لأن هؤلاء الملوك تسري في عروقهم دماء إسلامية. فقد ولدوا وترعرعوا في مجال جغرافي كان يحكمه المسلمون.

رابعا: تجليات التعايش على مستوى الأنشطة الاقتصادية

كانت الحياة الاقتصادية في صقلية العصر الوسيط قائمة على الزراعة وعلى بعض الأنشطة الحرفية والمبادلات التجارية شانها في ذلك شأن ممالك غرب المتوسط[2].

وقد ارتبطت بتلك الأنشطة مختلف الفئات الاجتماعية والطوائف الدينية بوصف بعض أفرادها من المنتجين المباشرين وبوصف بعضهم الآخر من المستهلكين. ولم يكن ثمة توزيع للمهام بين الأفراد النشطين في أي قطاع من القطاعات الاقتصادية.

[1] - ابن واصل الحموي، جمال الدين محمد بن سالم (توفي سنة 697 هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، حققه ووضع حواشيه حسنين محمد ربيع، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، ... الجزء الرابع، ص. 234 وص. 248.

[2] - أنظر الفصل التمهيدي من كتابنا الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، مطبعة الجسور، وجدة 2007.

فقد اشتغل في مجال الزراعة مسلمون ومسيحيون ويهود. كما اشتغل في مجالي الحرف والتجارة مسلمون ومسيحيون ويهود.

ورغم ذلك، فالراجح أن معظم الذين كانوا يمارسون الزراعة خلال الحقبة الاسلامية كانوا من المسلمين. وظل الأمر كذلك خلال الحقبة النورمانية على اعتبار أن المسلمين كانوا يمثلون غالبية السكان كما ذكرنا فيما مضى.

كان معظمهم يملك استغلالية صغيرة المساحة وكانت قلة منهم تملك استغلاليات متوسطة المساحة. كان بعضها يقع داخل أسوار المدن كالبساتين والجنات والعرصات وبعضها في ظهير تلك المدن وفي الأرياف كالضياع. وقد تحدث كل من ابن حوقل والادريسي وابن جبير عن مختلف أشكال هذه الاستغلاليات وعن المحاصيل التي كانت تجود بها.

ولا يجب أن يعني ما قلناه بأن الاستغلاليات الزراعية كانت حكرا على المسلمين. فالشريعة الاسلامية كانت تجيز منذ القرون الهجرية الأولى لغير المسلمين حق امتلاك قطعة أرض أو دكان أو منزل. ونعتقد أن تمكين جميع أفراد المجتمع من التمتع بهذا الحق يمثل مدخلا نحو اقرار التعايش بين أتباع الديانات الثلاث.

وقد تمتع جميع اتباع الديانات بهذا الحق في الأندلس[1]. ولا شك أن الأمر كان كذلك في صقلية. اذ يؤكد بيير بتفول (Pierre Batifol) في هذا الصدد أن بعض المسيحيين الاغريقيين كانوا يملكون ضياعا في أرياف جنوب ايطاليا وصقلية خلال الحقبة البيزنطية. ورغم انتقال الجزيرة الى السيادة الاسلامية ظل بعضهم محتفظا بما كان في حوزته[2]. ويقر هنري بريسك (Henri Bresc) نفس الشيء بالنسبة للطائفة اليهودية[3].

وقد تغير الوضع بعد انتقال حكم صقلية الى النورمان. حيث فقد عدد من المسلمين ما كان في حوزتهم من ممتلكات عقارية اما بسب رحيلهم عن صقلية وإما بسبب استيلاء النورمان عليها وإعادة توزيعها في سياق ارساء قواعد النظام الفيودالي. ورغم ذلك ظل عدد من المسلمين يملكون أجنة أو بساتين في الحواضر أو ضيعات في الأرياف.

---

[1] - أنظر كتابنا السالف الذكر، الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، الفصل الثاني.

[2] - أنظر كتابه: L'abbaye de Rossano ; p. XXIV.

[3] - أنظر كتابه: Arabes de langue. Juifs de rligion..., Op. Cit., p. 33.

ويفيدنا ابن جبير في هذا الصدد بأن عددا من الضياع المنتشرة في القرى الواقعة على المسلك الرابط بين مدينتي بلرم واطرابنش كان يملكها مسلمون. وقد زكى ما ذكره ابن جبير مضمون عقدين. أولهما أورده هنري بريسك في أحد أبحاثه مؤرخ بتاريخ فاتح صفر 510 هجرية / 15 يونيو 1116 ميلادية في موضوع "ضيعة" تقع بضاحية بلرم باعها مسلم يدعى حرز الله ابن عبد الغني اللخمي لمسيحي يسمى فليب ابن القائد فتيان[1]. والثاني أورده سلفاطور كوزا في كتابه السالف الذكر مؤرخ في أواسط جمادى الآخر 576 هجرية / أواسط نونبر 1180 ميلادية في موضوع "فدان" يقع بقبلي بلرم وبالقرب من الفوارة الكبيرة، اشتراه المدعو الشيخ المعلم باسيلي من مالكيه أبو العباس أحمد بن عبد النور التميمي وأبي الفضل ابن أحمد الجذامي[2].

ومعنى ذلك أن ارساء النظام الفيودالي من قبل الملوك النورمان الأوائل لم يغير البنية العقارية في الأرياف وظهير المدن رأسا على العقب. فظل عدد من اتباع الديانت الثلاث من خاصة وعامة الناس يملكون استغلاليات متفاوتة المساحة.

ويبدو أن أهم نتيجة ترتبت عن تغير الوضع السياسي على النشاط الزراعي، هي تحول عدد من الفلاحين الصغار الى أقنان عاملين في استغلاليات يملكها أرستقراطيون عقاريون مسيحيون أو تملكها مؤسسات دينية مسيحية. ومن بين تلك المؤسسات دير مونريال (Monreale) الذي تحول في عهد غليوم الثاني الى كاتدرائية كبرى سبق أن تحدثنا عنها.

ولعل من غريب الصدف، أن الفلاحين الذين قدر لهم أن يتحولوا الى أقنان عاملين لحساب الدير المذكور لم يكونوا فقط من المسلمين. بل كان من بينهم عدد من المسيحيين وكذلك نفر من اليهود. فجسدوا من دون ارادتهم نموذجا للتعايش بين فلاحين يعتنقون الديانات الثلاث ويمارسون ذات النشاط في مجال جغرافي محدد.

يفيدنا مجموعة من الباحثين خصوا النشاط الزراعي الذي كان يشرف عليه الدير المذكور بمقال مطول[3]، أن هذا الدير كان يقع في ظهير مدينة بلرم على قطعة أرض

---

[1] - "La propriété foncière des musulmans dans la Sicile du XIIe siècle: Trois documents inédits" in B. Scarcia Amoretti, Del nuovo sulla Sicilia musulmana , Rome , 1995 , pp . 69 – 97.

[2] - أنظر كتاب سلفاطور كوزا السالف الكر، عقد رقم 14، ص. 09 وما يلها.

[3] - نعني هنا مقال:

Henri Bercher, Annie Courteaux, Jean Mouton,"Une abbaye latine dans la société musulmane..."

:مقال سبقت الاحالة عليه في الفصل الأول.

صغيرة تعود ملكيتها للتاج الملكي. وسرعان ما اتسعت مساحتها لتتجاوز 1000 كلمتر مربع بفضل هبة مبالغ فيها من قبل غليوم الثاني.

كانت قطعة الأرض موزعة من الوجهة الطوبوغرافية بين مرتفعات وأراضي منبسطة. وكانت ساكنتها تبلغ حوالي ألفي نسمة غالبيتهم من المسلمين. وكانت توجد بها مجمعات سكنية ومؤسسات دينية ومستودعات ومرافق أخرى.

كانت تمارس في القسم الصالح للزراعة من قطعة الأرض، زراعة مختلطة موجهة لتلبية حاجيات السوق. وكان يسهر على تدبير قطعة الأرض رجال دين. بينما كان يتعهد مزروعاتها ومغروساتها فلاحون مسلمون يزيد عددهم عن 1800 فلاح. وكان يشتغل معهم فلاحون آخرون يمثلون ثلاث أقليات عرقية ودينية مؤلفة، حسب المعطيات الرقمية وغيرها التي تتضمنها وثائق الدير، من 65 فلاحا مسيحيا ونفر من اليهود لا تذكر الوثائق عددهم بالضبط و21 عنصرا من العبيد (السود) تبعا للمعطيات التي تقدمها ذات الوثائق حول لون بشرتهم وملامح وجوههم وشعر رؤوسهم[1].

ومارس سكان صقلية خلال الحقبة الاسلامية أنشطة حرفية. وقد أشار ابن حوقل الى بعض تلك الحرف في سياق الصورة التي رسمها عن بلرم. فذكر النجارين والحدادين والدباغين والاسكافيين[2]. ولكنه لم يشر الى الانتماءات العرقية أو الدينية لأولئك الذين كانوا يمتهنون تلك الحرف.

ومن المحتمل جدا أن يكون معظمهم من المسلمين. لأن أفراد الطائفة اليهودية كانوا أكثر ميلا الى ممارسة مهن اخرى كصناعة الحلي والمجوهرات والصيرفة. نطرح هذا الاحتمال في ضوء المعطيات التي توفرها المصادر الأندلسية حول علاقة الطوائف الدينية بالأنشطة الحرفية التي كانت منتشرة في الحواضر خلال عصري الامارة والخلافة.

وعلى غرار ضآلة المعلومات التي نتوفر عليها حول العناصر التي كانت تمارس أنشطة حرفية خلال الحقبة الاسلامية، فإننا لا نتوفر على معلومات ضافية حول العناصر التي اضحت تمارس تلك الأنشطة بعد انتقال حكم صقلية الى النورمان. ومن المرجح أن عددا من المسلمين ظلوا يمارسونها كما كان الأمر ابان الحكم الاسلامي

[1] - نفس المقال، ص. 531.

[2] - كتاب صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص. 114.

للجزيرة. فقد ذكر ابن جبير في معرض حديثه عن مدينة مسينا "أنه ليس فيها من المسلمين الا نفر يسير من ذوي المهن"[1]. كما أن نماذج من الوثائق العمومية المعروفة "بالجرائد"[2]، تعود لأواخر القرن الحادي عشر، تتضمن أسماء بعض المسلمين مقرونة ببعض المهن كالجزارة والنجارة والحدادة من قبيل "أبو بكر الجزار" و"عبد الله النجار" و"أبو القاسم ابن الحداد" و"رضوان الخراز". ومن المرجح أيضا أن أفرادا من الطائفة اليهودية كانوا يمارسون بعض الحرف خلال تلك الفترة حسب الافادات التي أوردها داوود أبو العافية (David Abulafia) في مقال نشره سنة 2008 حول الأنشطة الاقتصادية التي كان يزاولها يهود صقلية وجنوب ايطاليا خلال الحقبة النورمانية[3]. ذكر فيه أن عددا منهم اشتغل في وحدات صناعة الأقمشة الحريرية التي كان يرعاها روجر الثاني شخصيا. كما اشتغل بعضهم الآخر في أوراش صباغة المنسوجات وأوراش صناعة الجلود. ومارس بعضهم الآخر مهنتي الصيرفة والتطبيب[4].

والى جانب الزراعة والأنشطة الحرفية، شكلت التجارة الداخلية أحد الأنشطة الاقتصادية التي يكون قد انخرط فيها أفراد من مختلف الطوائف الدينية رغم أننا لا نتوفر على معلومات تدعم ما نذهب اليه. ولكن ما نستطيع تأكيده هو أن تجارة التقسيط كان يسيطر عليها المسلمون ابان الحقبة الاسلامية وفق حديث ابن حوقل عن الدكاكين التي كانت تعرض بها سلع استهلاكية متنوعة[5].

وقد ظل عدد من المسلمين يشتغلون في تجارة التقسيط في بلرم وغيرها من الحواضر التي كانوا يتواجدون بها بكثافة خلال الحقبة النورمانية حسب الاشارات التي تتضمنها رحلة ابن جبير حول اسواق المدن. وتفيد تلك الاشارات أيضا بأن عددا مهما من المسيحيين كانوا منخرطين بدورهم في تجارة المواد الاستهلاكية بحواضر صقلية خلال فترة زيارته لها.

---

[1] - أنظر رحلته، ص. 266.

[2] - أنظر نماذج منها في كتاب سلفاطور كوزا السالف الذكر.

[3] - "The jews of Sicily and southern Italy : Economic activity", in Wirtshaft-sgeschichte der mittelalterlichen Juden Fragen und Einschatzungen, 2008, pp.49-62.

[4] - نفس المقال، ص. 51.

[5] - أنظر كتابه صورة الأرض، ص. 114. يتحدث في هذه الصفحة عن الزياتين والسماكين والابزارين والقصابين وبائعي البقول والفواكه.

أما بخصوص الطائفة اليهودية، فقد بات من المعروف اليوم من خلال وثائق الجنيزة التي استغلها بعض الباحثين، أن عددا من أفراد تلك الطائفة قاموا بدور بارز في المبادلات التجارية التي كانت قائمة بين حواضر صقلية الاسلامية وحواضر كيانات غرب البحر المتوسط. واستمر عدد منهم في القيام بذلك الدور حتى بداية طردهم من الجزيرة[1].

ويؤكد داوود أبو العافية (David Abulafia) بدوره أن دورهم في تلك المبادلات تأكد أكثر خلال الحقبة النورمانية بحكم صلات القرابة والعلاقات التي كانت تربط بين عدد كبير منهم وأفراد الجاليات اليهودية المقيمة في حواضر غرب وشرق البحر المتوسط. وينبهنا في ذات السياق بأن يهود صقلية لم يهتموا بتجارة الحبوب والمنتوجات الزراعية، بقدر ما اهتموا بتجارة المصنوعات النفيسة والمنسوجات الحريرية وبعض المواد التي كانت تدخل في صباغة النسيج والأخشاب[2].

ومهما يكن من أمر، فإن أهم ما يمكن التأكيد عليه كخلاصة لما أوردناه حول تجليات التعايش بين أتباع الديانات الثلاث على مستوى الأنشطة الاقتصادية، هو أن جميع أتباع تلك الديانات كانوا منخرطين في الحياة الاقتصادية خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية دون مراعاة لانتماءاتهم العرقية أو معتقداتهم الدينية. رغم أن المسلمين كانوا يراعون تجنب مزاولة أنشطة يحرمها الدين الاسلامي. فممارسو الزراعة، الذين كانوا يملكون استغلاليات خاصة خلال الحقبة الاسلامية أو الذين ظلوا يملكون استغلاليات خلال الحقبة النورمانية، كانوا يتجنبون تحويل كميات مما تنتجه استغلالياتهم من كروم الى خمور. والمشتغلون في تجارة التقسيط كانوا يتجنبون عرض هذه المادة على المستهلكين. والمهتمون بتربية المواشي كانوا يتجنبون تربية الخنازير. والجزارون كانوا يتجنبون بيع لحوم الخنزير.

---

[1] - أنظر في هذا الشان كتاب هنري بريسك (Henri Bresc):

Arabes de langue, juifs de religion, chapitre X.

[2] - أنظر مقال داوود أبو العافية (David Abulafia) السالف الذكر.

خامسا: تجليات التعايش على مستوى الحياة الدينية

حين انتزع الأغالبة الجزيرة من البيزنطيين، اعتنق الاسلام عدد من المسيحيين الاغريقيين واللاتينيين بينما ظل معظمهم يدين بالمسيحية نظير دفع جزية كما ذكرنا ذلك فيما مضى. واستمروا في ممارسة الشعائر والتردد على المؤسسات الدينية بكل حرية. وذلك ما جرى أيضا مع اليهود الذين كانوا يقيمون بحواضر الجزيرة.

وتبعا لوجود أربع أنواع من المؤسسات الدينية، نستطيع أن نتصور بأن سكان حاضرة واحدة كبلرم على سبيل المثال، كانوا يلتقون في الطرقات عند التوجه الى أماكن العبادة أو بعد الانصراف منها. وحتى وإن سلمنا بأن أفراد كل طائفة دينية كانوا يؤدون الشعائر في أوقات مختلفة وفي أمكنة متباعدة نسبيا. أي أن المسيحيين كانوا يؤدون الشعائر في الكنائس الواقعة في المدينة القديمة (النواة البيزنطية) وأن اليهود كانوا يؤدونها في الكنيس الواقع في "حارة اليهود" وأن المسلمين كانوا يؤدونها في المساجد الواقعة في الحارات التي يقيمون بها، فإن ذلك لا يمنع من الحديث عن تعايش بين معتنقي الديانات الثلاث لأن الشعائر كانت تؤدى في مجال حضري واحد ولأن معتنقي الديانات الثلاث كانوا يلتقون في الشوارع أو في الأسواق أو في ساحات المدينة ومتنزهاتها.

وقد ذكر الراهب ثيودوسيوس في الرسالة التي تحدثنا عنها فيما مضى، أن الجموع الغفيرة من سكان بلرم الذين خرجوا لمعاينة موكب الأسرى وهو يدخل الى المدينة لم يكونوا كلهم مسلمين. وعاد مرة أخرى ليذكر بأنه مثل بين يدي الوالي. وعند انتهاء المقابلة عاد به الحراس الى السجن ومروا بساحة عمومية. فتجمهر حول الموكب عدد كبير من السكان. وكان من بينهم عدد من المسيحيين[1]. وتفيد هذه الشهادة بأن المسلمين والمسيحيين كانوا يشتركون في التظاهرات العامة. وكانوا يلتقون قبل أو بعد تأدية الشعائر.

لا ندري التوقيت الذي تمت فيه المناظرة بين الوالي والراهب. ومن المحتمل أن تكون قد تمت قبل صلاة الظهر. فعاين عدد من المسلمين والمسيحيين عودة موكب الأسير. وبعدها اتجه المسلمون لتأدية صلاة الظهر.

وعموما، تسمح القرائن المتوفرة، بالقول بأن سكان بلرم وغيرها من الحواضر كانوا أحرارا في اختيار المعتقد الذي يناسبهم وفي اقامة الشعائر بشكل علني. وإن

[1] - أنظر نص رسالته في كتاب سيزار فمان (César Famin) الذي سبقت الاحالة عليه، ص. ص. 367-368.

الاخباريين المسيحيين واليهود الذين توقفنا في مبحث سابق عند مصنفاتهم، لا يذكرون بأن مسيحي أو يهود صقلية كانوا عرضة للمضايقات أو التنكيل خلال الحقبة الاسلامية خلافا لما يذهب اليه الراهب الإفرنجي بيرنار الحكيم (Bernard le Moine ou Moine le Sage) الذي قام برحلة حج الى الأرض المقدسة حوالي سنة 865 ميلادية.

وقد مر بعد انطلاقه من غالة (فرنسا) ببعض مناطق ايطاليا. ووضع بعد عودته مصنفا تضمن مشاهداته وانطباعاته. فذكر أن المسلمين كانوا ينكلون بمسيحي الحواضر التي سيطروا عليها في شبه جزيرة ايطاليا وكانوا يقتادون عددا منهم كأسرى الى الديار الإسلامية. ويضيف في هذا الشأن أنه امتطى مركبا من باري (Bari)[1] الى ترانتو (Taranto)[2]. وحين وصلها، رأى ستة مراكب راسية بمرفئها، بلغه أن على متنها تسعة آلاف أسير مسيحي تم توزيعهم الى ثلاث فرق، تقرر اقتياد إحداها الى بلاد المغرب والثانية الى بلاد الشام والثالثة الى مصر[3].

ويبدو أن حرية المعتقد وإقامة الشعائر استمرت في عهد النورمان. فقد أقروا معتنقي المسيحية الأرثوذوكسية على دينهم حين كانوا يحكمون كلبريا وبعض مناطق صقلية. وحين نجحوا في دخول بلرم، أبانوا أيضا عن نوع من السماحة وأقروا سكان المدينة على أديانهم وفق شهادة الاخباري ملترا[4]. وقد أكد تلك الشهادة الادريسي الذي يذكر بأن روجر الأول "نشر العدل بين أهل صقلية وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم في أموالهم وأنفسهم وأهلهم وذراريهم"[5]. ويضيف بأن خلفه روجر الثاني سار على نفس النهج. فأقر أهالي صقلية على أديانهم وحمى مؤسساتهم الدينية[6].

ويؤكد في نفس المضمار بأن أكثر مساجد المسلمين ظلت كما كانت زمن سيادة المسلمين وأن "المسجد الأعظم" الذي كان تحفة في أيامهم "أعيد في هذه المدة [أي أيام

---

[1] - مدينة مطلة على بحر الأدرياتيك. وقعت بين أيدي المسلمين بين سنتي 841 و871 ميلادية.

[2] - مدينة ساحلية تقع جنوب شرق ايطاليا. سيطر عليها المسلمون بين سنتي 840 و860 ميلادية.

[3] - أنظر الكتاب الموسوم ب:

Itinéraire de Bernard, moine franc, (IXe siècle),texte traduit du latin , présenté et annoté par Christiane Deluz, in Croisades et pèlerinages, récits, chroniques et voyages en Terre Sainte, ouvrage collectif, Paris, Robert Laffont, 1997, p. 120.

[4] - أنظر اخباريته، النسخة اللاتينية، الكتاب الثاني، الفصل الخامس والأربعين.

[5] - أنظر كتاب نزهة المشتاق، المجلد الثاني، ص. 589

[6] - نفسه، المجلد الثاني، ص. 589.

حكم روجر الثاني] على حالته كما كان في سالف الأزمان وصفته الآن تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة"[1]. ولا شك أن شهادة الادريسي تفيد بأن الملوك النورمان الأوائل لم يكتفوا بالسماح للمسلمين باقامة شعائرهم ولم يكتفوا بصيانة مساجدهم، بل حرصوا على رد الاعتبار لمعظمها بترميمها وتثمينها من الوجهة المعمارية. فأضحت تحفا حسبما يستشف من كلام الادريسي عن المسجد الأعظم ببلرم. وينطبق ذات الأمر على "الفنادق" و"الحمامات" و"حوانيت كبار التجار" رغم أنها مرافق يملكها أفراد ينتمون لطائفة غير مسيحية.

ويقر بيير بتفول (Pierre Batiffol) بدوره، أن روجر الثاني حرص على تعايش مختلف الطوائف. فأباح للمسيحيين الأورثوذوكس اقامة الشعائر كما كان الأمر زمن سيادة البيزنطيين للجزيرة. حتى أن بطريرق القسطنطينية التمس من الملك النورماني سنة 1143 ميلادية، أن يتنازل له عن حق الوصاية القانونية على المؤسسات الدينية الأورثوذوكسية[2].

وواصل غليوم الثاني سياسة الحفاظ على التعايش بين أتباع الديانات الثلاث. وذلك ما أثاره ابن جبير في اكثر من موضع في رحلته من خلال حديثه عن اختلاط المسلمين والمسيحيين في الأسواق وتقارب مساكنهم ومؤسساتهم الدينية في بعض الحصون. رغم أنه لاحظ بأن خطبة الجمعة كانت محظورة في مساجد صقلية.

وحاول الملوك الذين تعاقبوا على حكم صقلية بعد وفاة غليوم الثاني سنة 1189 ميلادية، السير على نهج أسلافهم بالحفاظ على مبدإ التسامح وإقرار كل طائفة على دينها. ولكن هذا النهج بدأ يتراجع منذ أن أصبحت صقلية خاضعة لأسرة الهوهنشتاوفن (Hohenstaufen) في شخص ممثلها هنري السادس الذي تولى حكم الجزيرة في شهر دجنبر 1194 ميلادية الى جانب حكم الامبراطورية المقدسة. فانتهج سياسة قاسية في حق سكانها أثارت نقمتهم عليه. ولحسن الحظ لم تدم فترة حكمه طويلا. حيث توفي في أواخر شتنبر 1197 لتدخل صقلية في مرحلة فراغ سياسي دامت بضعة أشهر حتى اعتلى عرشها فردريك الثاني في أواخر شهر دجنبر 1198 للميلاد.

[1] - نفس المصدر، المجلد الثاني، ص. 591.

[2] - L'abbaye de Rossano, p. xxvii.

ورغم أن انفتاحه على ثقافة القدماء بصفة عامة، وعلى الثقافة العربية بصفة خاصة وحرصه على اقامة علاقات ودية مع العالم الاسلامي، ذكّرا الصقليين عامة والمسلمين بصفة خاصة بالملوك النورمان الأوائل، الا أنه اختلف عنهم في نهج سياسة متشددة في اطار رغبته في ارساء قواعد سلطة مركزية في صقلية. فقلص هامش الاستقلال الذي كانت تنعم به الأقاليم بما فيها تلك التي كانت تقيم بها غالبية مسلمة، مما أثار ضجر بعض زعمائها لأن الاجراءات التي اتخذها في هذا المضمار سلبتهم كثيرا من الامتيازات. فاندلعت بعض الانتفاضات هنا وهناك. وكانت أقواها انتفاضة مسلمي اقليم جيرجنتي (Girgenti ou Agrigente) التي تزعمها المدعو محمد بن عباد العبسي[1].

ولم يكتف فردريك الثاني بإخماد هذه الانتفاضة، بل قام بترحيل من بقي حيا من المشاركين فيها الى منطقة لوتشيرا (Lucera). ووضعهم "تحت الإقامة الجبرية" في مستوطنة تم تشييدها لهذا الغرض كما ذكرنا ذلك سابقا.

والغريب في الأمر أن سياسة فردريك الثاني في المجال الديني، بدت متناقضة. فقد ناصب البابوية العداء طيلة فترة حكمه. وكان متشددا ضد المسلمين واتخذ منهم في الوقت ذاته حراسا له متبعا في ذلك تقليدا ابتدعه الملوك النورمان الأوائل.

وسار على منواله ابنه منفريد (Manfred) الذي زار ابن واصل معسكره في مدينة برلت (برليتا Barletta) بمناسبة رحلته السفارية الى صقلية. فذكر "أن عددا من المسلمين يتولون الأمور الخاصة والعامة في إمبراطورية مانفريد. وأن الإعلان عن الصلاة يتم في معسكره برفع الآذان"[2].

---

[1] - لمزيد من التفاصيل بخصوص هذه الانتفاضة وما آلت اليه، يمكن العودة لدراسة أمين توفيق الطيبي الموسومة ب "السياسة العربية للإمبراطور فردريك الثاني صاحب صقلية" ضمن كتابه دراسات في تاريخ صقلية الاسلامية، منشورات دار اقرأ، طرابلس 1990، ص.ص. 53-58. وكذلك لدراسة أنليز نيف (Annliese Nef) الوسومة ب:

"La déportation des musulmans siciliens par Frédéric II. Précédents, modalités, signification et portée de la mesure":, in Le monde de l'itinérance en Méditerranée de l'Antiquité à l'époque moderne, ouvrage dirigé par Claudia Moatti, Wolfgang Kaiser et Christophe Pébarte, Pessac, Ausonius Éditions 2009.

ودراسة جولي آن تايلور (Julie Anne Taylor) الموسومة ب:

Muslims in medieval Italy. The colony at Lucera, New York, Lexington Books, 2003.

[2] - أنظر كتابه مفرج الكروب...، مصدر سبقت الاحالة عليه، الجزء الرابع، ص. 248.

الفصل الثالث
أشكال وصيغ الانفتاح والمشاركة بين مثقفي صقلية

كان غالبية أفراد المجتمع الصقلي تتألف، خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية، من فلاحين ومزارعين وتجار وحرفيين. وكان من بين أفراد المجتمع كذلك عدد من المتعلمين الذين نبغ بعضهم وأصبحوا يؤلفون نخبة من أعلام الفكر والثقافة. تعززت أعدادهم بمقدم عدد آخر من الأعلام الذين انتقلوا من مختلف مناطق العالمين الاسلامي والمسيحي واستقروا بصقلية. ووضع كل هؤلاء مؤلفات في مختلف حقول المعرفة.

وبما أن اللغة العربية كانت تمثل اللغة الرسمية خلال الحقبة الاسلامية وكذلك اللغة المتداولة بين غالبية السكان، فقد كانت اللغة الأكثر اعتمادا في البحث والتأليف بالنظر لعدد المؤلفات التي تتألف منها المكتبة الصقلية.

ولكن ذلك لا يمنع من القول بأنه من المحتمل جدا أن تكون بعض المؤلفات قد وضعت باللغة الاغريقية أو باللغة اللاتينية خلال نفس الحقبة رغم أننا لا نعرف عنها شيئا. ودليلنا في ذلك أن "كتاب تاريخ صقلية" وضع أصلا باللغة الاغريقية من قبل مؤلف مجهول من أصول اغريقية. وأن الراهب ثيودوسيوس كتب رسالته من داخل سجن بلرم باللغة الاغريقية.

وبعد انتقال حكم الجزيرة للنورمان، تم ترسيم اللغات الثلاث. فأضحت بمقتضى قرار سياسي، تمثل لغات تدبير الشأن العام ولغات البحث والتأليف. فأخذت تظهر مؤلفات مكتوبة باللغة اللاتينية. وعادت الى التكاثر المؤلفات المكتوبة باللغة الاغريقية. واستمرت المؤلفات المكتوبة باللغة العربية في الظهور. ولكن عددها تراجع كثيرا تبعا لتراجع عدد المثقفين الذين يستعملونها في البحث والتأليف.

وتفيد هذه الاشارة بأن عددا كبيرا من المثقفين المسلمين عاصروا فترة انتقال الحكم من المسلمين الى النورمان. فكان عليهم الاستعداد لعيش ما يشبه تجربة "تناوب سياسي". كانت ستنعكس حتما على مواقفهم وعلى مجمل ما سيضعونه من مؤلفات. ولكن عددا منهم رفضوا خوض تلك التجربة فغادروا صقلية الى مصر أو الى افريقية أو

الى الأندلس. ولم يمكث في الجزيرة الا الذين كانوا مستعدين لخوض التجربة. فلا غرو اذا وجدناهم يقومون بعملية "تجاوز" كما ذكرنا من قبل. فانفتحوا على من لا يشتركون معهم في الانتماء العرقي والديني.

وأبدى غير المسلمين بدورهم استعدادا "لمد اليد" والانفتاح. فاشترك جميع مثقفي الجزيرة عن وعي في صياغة "مشروع ثقافي" موحد هو الذي ينعته الباحثون اليوم "بالثقافة العربية النورمانية" أو "الثقافة البيزنطية العربية النورمانية" التي سنتوقف عند بعض جوانبها في هذا الفصل من خلال التركيز على صيغ الانفتاح والمشاركة بين المثقفين الذين ساهموا في صياغة ذلك المشروع.

ونود قبل ذلك توضيح أربع مسائل:

أولها أن المساهمة في ذلك المشروع لم تكن تقتضي من المثقف اتقان أكثر من لغة، رغم أن الالمام باللغات كان محبذا للمشاركة فيه بشكل فعال على اعتبار أنه قام على تعدد لغوي. ولكن اتقان لغتين أو أكثر كان ضروريا بالنسبة لمن يريد اقتحام مجال الطب أو الترجمة التي أصبحت تحظى منذ بداية الحقبة النورمانية باهتمام لم يسبق له نظير. ونختلف بخصوص الشق الأول من هذه المسألة مع ما يذهب اليه احسان عباس الذي يؤكد أن المام المثقف بأكثر من لغة كان آنذاك شرطا ضروريا لكي يجد له مكانا مرموقا[1].

ثانيها أن الحركة الثقافية مالت نحو تغليب العلوم العقلية في عهد النورمان بعد أن كانت الكفة مائلة لصالح العلوم النقلية ابان حكم المسلمين. وقد ظل الملوك رعاة للحركة الثقافية. وربما أكثر من الرعاية التي قام بها الأمراء المسلمون. لأن الملوك النورمان لم يكتفوا بتشجيع المثقفين واستقطابهم. بل شاركوا في تلك الحركة بقسط وافر. ويكفي أن نذكر في هذا الصدد أن روجر الثاني أشرف شخصيا على انجاز عدة مؤلفات من بينها الكتاب الذي وضعه الادريسي العربي- المسلم والكتاب الذي وضعه نيلوس دوكسَباتريس (Neilos Doxapatres) الإغريقي الأصل. وأن فردريك الثاني لم يكتف بالاشراف، بل وضع بنفسه مصنفات وساءل العلماء المسيحيين والمسلمين حول مسائل رياضية وفلكية وفلسفية كما سنرى لاحقا.

[1] - أنظر كتابه، العرب في صقلية، ص. 157.

ثالثها أن القصر أضحى مجالا رئيسيا للحركة الثقافية. وانضمت له مدارس كبرى وأبرزها مدرسة سالرنو الطبية. في حين تراجع دور المساجد والكتاتيب التي كانت تمثل أهم مراكز الاشعاع الفكري والثقافي.

رابعها أن الحركة الثقافية بدت وكأن الطابع "التشاركي" طغى على بعض جوانبها. فما تحقق في حقلي الطب والترجمة جاء نتيجة تظافر جهود مجموعة من العلماء. وينطبق الأمر ذاته على حقل الجغرافيا. فما كان بإمكان الادريسي أن ينجز لوحده مؤلف "نزهة المشتاق" لولا الجهود التي بذلها جنود الخفاء في جمع المعلومات والمعطيات التي تضمنها. وخلافا لذلك سارت حقول أخرى، كالأدب على نفس المنوال. فظلت مجالات لمبادرات فردية.

وجميع هذه المسائل، وغيرها، هي التي سنحاول توضيحها من خلال التطرق لصيغ الانفتاح والمشاركة بين مثقفي صقلية في أهم حقول المعرفة. سنسلط الضوء، في سياق ذلك، على الذين برزوا منهم. كما سنذكّر بأهم الأعلام المسلمين الذين قدر لهم أن يعيشوا "تجربة التناوب" التي أشرنا اليها.

أولا: صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل الطب

نستهل الحديث عن صيغ الانفتاح والمشاركة بين مثقفي صقلية بالحديث عن تلك الصيغ في مجال الطب باعتباره الحقل المعرفي الأول، من وجهة نظر كرونولوجية، الذي تلاقحت فيه معارف أعلام من مختلف الديانات.

بدأ ذلك التلاقح في الواقع في القيروان التي أنشأ بها الأمير الأغلبي أبو اسحاق ابراهيم الثاني "مدرسة للطب" على غرار بيت الحكمة في بغداد. وقد ضمت ثلة من الأطباء المسلمين واليهود أمثال اسحاق بن عمران اليهودي وزياد بن خلفون وأحمد ابن الجزار واسحاق بن سليمان الاسرائيلي ودونش بن تميم الشفلجي اليهودي[1].

وقد جمع هؤلاء الأعلام بين الممارسة والبحث والتأليف. وبزغ نجم بعضهم، فدخلوا في خدمة الأمراء كإسحاق بن عمران الذي عمل في خدمة الأميرين الأغلبيين أبي اسحاق إبرهيم الثاني وزيادة الله الثالث واسحاق بن سليمان الاسرائيلي الذي خدم

[1] - يمكن العودة في هذا الشأن للمداخلات التي أقيت بمناسبة انعقاد ندوة "مدرسة القيروان الطبية وموقعها في الطب العربي الاسلامي"، منشورات مركز الدراسات الاسلامية، القيروان، 2014.

الامام أبا محمد عبيد الله المهدي ودونش بن تميم الشفلجي اليهودي الذي خدم المنصور وبعده المعز لدين الله.

وانتقل نفر من أطباء القيروان الى صقلية بعد فتحها على يد الأغالبة. كما نقلوا معهم كثيرا من المؤلفات من وضعهم ومن وضع غيرهم وفق افادات المؤرخ الفرنسي بيير- لويس جنگوني (Pierre-Louis Ginguené)[1].

ومن المحتمل أن يكون قد انتقل نفر منهم الى حواضر جنوب ايطاليا، مثل باري (Bari) وترانتو (Taranto) وسالرنو (Salerno) التي كان يمارس بها عدد من الأطباء الاغريقيين واللومبارديين. فأضحت تلك الحواضر، وفق الباحثة دانييل جكار(Danielle Jacquart) ملتقى الثقافات الهلنستية واللاتينية والاسلامية[2].

وقدر لسالرنو أن يصبح لها شأن كبير في ميدان الطب. فقد كانت توجد بها حامات يقصدها المرضى للاستشفاء بمياهها المعدنية. كما كانت تضم مركزا صحيا متواضعا يشرف عليه جماعة من رجال الدين البندكتيين ويمارس به بعض الأطباء المغمورين. فانضم اليهم عن طريق الصدفة أربعة أطباء يبدو وكأنهم ينتمون لعالم الميثولوجيا. إذ لا يعرف عنهم شيئا. ولكن الباحثين يوردون مع ذلك أسماءهم. يدعى أولهم بونتوس (Pontus) وهو اغريقي الأصل والثاني سلرنوس (Salernus) لاتيني ابن سلرنو والثالث هلنوس (Helinus) اليهودي والرابع مسلم يدعى عبد الله. تظافرت جهودهم وأفضت الى تأسيس أول نواة للطب عرفت "بمدرسة سالرنو".

ومما لا شك فيه أن رواية التأسيس التي ما زالت متداولة الى اليوم تضفي طابع العالمية على مدرسة سالرنو. كما تفيد بأن احترام قواعد التعايش بين الأديان وأتباعها يمكن أن يفضي الى نتائج لا تخطر على بال.

وعلى كل حال، تخصصت هذه المدرسة في علوم الطب وحدها. وكان معظم أفراد هيئتها الطبية من اللائكيين (العلمانيين). كانوا يدرّسون علوم الطب لطلبة متعددي الأديان ويعالجون المرضى. واشتهرت في ايطاليا وفي سائر أنحاء أوربا منذ

---

[1] - أنظر كتابه:

Histoire littéraire d'Italie, Editions Paolo Emilio Guisti, Milan, 1811, Tome premier, p. 96.

[2] - أنظر مداخلتها الموسومة ب:

"Aristotelian Thought in Salerno ", in A History of Twelfth Century Western Philosophy, book directed by Peter Dronke, Cambridge University Press, 1988, pp. 407-428.

العقود الأخيرة من القرن العاشر للميلاد كما يفيدنا بذلك مؤلفو المجلد الثاني والثلاثين من "موسوعة العلوم الطبية"[1]، الذين يذكرون أن شارل البسيط (Charles le Simple) ملك غالة استدعى سنة 904 للميلاد احد أطباء المدرسة ليجري له بعض الفحوصات. وفي سنة 984 ميلادية توجه أدلبرون (Adalberon)، أسقف ڤردان (Verdun)، اليها قصد تلقي العلاج من آلام في المثانة كان يشكو منها.

وتكرست شهرة المؤسسة منذ مطلع القرن الحادي عشر بفضل أطباء مبرزين تعاقبوا على التدريس والتطبيب بها أمثال يوحنا الميلاني (Jean de Milan) وڤاربود ڤريوبونتوس (Warbod Gariopontus) اللذان مارسا بها منذ سنة 1020 ميلادية. فازداد عدد طلبة العلوم الطبية الذين رحلوا اليها من مختلف مناطق غرب أوربا.

ثم ذاع صيتها أكثر بعد سنة 1075 ميلادية حين انضم اليها العالم المشهور القرطاجي الأصل، قسطنطين الافريقي، الذي تزامن انضمامه اليها مع سيطرة النورمان على المدينة. وقد أعطى قسطنطين الافريقي للمؤسسة زخما كبيرا حتى أن المؤرخ بيير-لويس جنكوني ذهب الى جعله المؤسس الحقيقي للمدرسة[2].

ويفهم من هذه الاشارة أن قسطنطين الافريقي مسح الطاولة وانطلق من جديد بالعودة الى مؤلفات القدامى من الاغريقيين كأبقراط وجالينوس ومؤلفات المتقدمين والمتأخرين من المسلمين كابن سينا وابن الجزار وحنين ابن اسحاق. لأنه وجد فيها اجابات عن الأسئلة النظرية وعن طرق التطبيب لم يجد اجابات مقنعة عنها في المؤلفات اللاتينية كما يوضح ذلك بنفسه في بعض الفصول التي استهل بها المؤلفات التي قام بترجمتها[3].

ومن المفيد الاشارة في هذا الشأن الى أن قسطنطين الافريقي قضى ردحا من حياته في الترحال بين عدة حواضر اسلامية طلبا للعلم. وأقام مدة ببغداد والقاهرة

---

[1] - Ouvrage collectif, Paris, P. Asselin et G. Masson, Libraires Éditeurs, 1885, p. 350.

[2] - أنظر كتابه السالف الذكر، ص. 97.

[3] - أنظر:

Danielle Jacquart, "Le sens donné par Constantin l'Africain à son œuvre. Les chapitres introductifs en arabe et en latin" , in Constantin the African and Ali Ibn al-Abbas al-Mgussi. The pantegni and related texts, book edited by Charles Burnett and Danielle Jacquart, E.J. Brill, Leiden - New York – Koln, 1994, p. 72.

واستطاع الالمام بعدة لغات ثم رحل الى سالرنو التي نقل اليها كثيرا من المؤلفات الطبية العربية والاغريقية. فعكف على ترجمة نماذج كثيرة منها. وأدرج مضامينها النظرية والتطبيقية ضمن برنامج المدرسة وممارسة طاقمها الطبي[1]. وسار على منواله كل من كوفون الشاب (Cophon le jeune) ويوحنا أفلاسيوس (Loannes Afflacius) اللذين التحقا بالمؤسسة حوالي سنة 1090 ميلادية. وعُدّا من قبل بعض الباحثين من أبرز تلامذة قسطنطين الافريقي[2].

وكان من نتائج الشهرة التي اكتسبتها المدرسة، بفضل انفتاحها على معارف الشرق والغرب، أن وضعت تحت حماية الأسرة الملكية بموجب مرسوم اصدره روجر الثاني سنة 1140 ميلادية. فتحولت بذلك الى ما يشبه المؤسسة العمومية بعد أن انطلقت في الأصل بفعل مبادرة خاصة. وأصدر بالمناسبة مرسوما آخر يقضي بضرورة التوفر على رخصة لممارسة مهنة الطب[3]. فكان هذا الاجراء تقليدا لإجراء مماثل كان يجري العمل به في دار الاسلام لتنظيم المهنة وإقصاء المشعوذين والمتطفلين عليها. وقد حدث التطفل بالفعل في سالرنو وفي نابولي (Napoli) قبيل صدور المرسوم المشار اليه. حيث مارس المهنة عدد من اللائكيين وعدد من رجال الدين لتحقيق مداخيل طائلة.

واتضح البعد المؤسساتي للمدرسة ابتداء من سنة 1150 ميلادية، حين تولى ادارتها نيكولاس بروبوزيتوس (Nicolas Prœpositus). وقد حرص على السير وفق المنهج الذي رسخه قسطنطين الافريقي. فكان التراث الطبي الاغريقي والعربي – الاسلامي حاضرا ضمن برامجها وضمن طرق علاج كثير من الأمراض التي كانت متفشية آنذاك[4]. ولذلك ظلت هذه المؤسسة تحظى بثقة الطلبة والمرضى من عامة الناس ومن خاصتهم بما في ذلك ملوك صقلية النورمان. فلا غرو اذا وجدنا فردريك الثاني يعطيها طابع المؤسسة الطبية بامتياز. حيث أصدر سنة 1238 مرسوما يقنن تقليدا كان متبعا فيها للحصول على شهادة الطب يقضي بألا يزاول أي طالب مهنة الطب الا بعد خمس

---

[1] - Georges Bécavin, L'école de Salerne et les médecins salernitains, Paris, J.-B. Baillère, 1888, p. 62 et suivantes.

[2] - نفس المرجع، ص. ص. 71-74 وص.ص. 75-76.

[3] - Kurt Sprengel, Histoire de la médecine (en allemand), traduction A. J. L. Jourdan, Paris, Deterville et Th. Desoer Éditeurs,1825, p. 362. .

[4] - يستفاد من بعض الأبحاث أنه وضع مؤلفا في الطب استحضر فيه المبادئ التي ركز عليها اقطاب الطب العربي – الاسلامي في مؤلفاتهم. أنظر المرجع الذي أحلنا عليه في الهامش السابق، ص. 360.

سنوات من الدرس والتحصيل. تتوج بالحصول على شهادة مصادق عليها من قبل ادارة المدرسة. وكانت هذه المصادقة تقضي بأن يناقش علنا أمام لجنة من المدرسين مجموعة من النصوص الطبية (articella) تتألف من نصوص لجالينوس أو أبقراط الاغريقين ونصوص لابن سينا[1].

ويتضح في ضوء ما ذكرناه في الفقرات السابقة، أن صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل الطب اتخذت في سالرنو عدة أبعاد عملية ونظرية. تجلت فيما يلي:

- قيام أعلام من أتباع الديانات الثلاث بتأسيس مؤسسة طبية.
- الإشراف الجماعي (التشاركي) على سيرها.
- السماح لطلبة من مختلف الآفاق والانتماءات الاثنية والدينية الالتحاق بها.
- اعتماد ثلاث لغات في منهجية التدريس بها.
- ترجمة نصوص من التراث الطبي الانساني وادراجها ضمن البرنامج المدرس وضمن طرق علاج المرضى.
- تعهد مرضى قادمين من مختلف الآفاق وتابعين لمختلف الديانات.

ومن المفيد الاشارة بأن تجربة الانفتاح والمشاركة التي لاقت نجاحا كبيرا في سالرنو، انتقلت الى مونبوليي (Montpelier) الفرنسية التي نشأت بها نواة طبية مماثلة للمدرسة الايطالية رغم أن اسهامات المسلمين في نشأتها وتسييرها لم تكن مباشرة. ولكن تراثهم الطبي كان حاضرا بين أساتذتها وطلبتها؛ لأن نصوص الرازي وابن سينا كانت مدرجة ضمن برامجها الى جانب نصوص أقطاب الطب الاغريقي واللاتيني[2].

---

[1] - أنظر في هذا الشأن مقال:

Fiedr von Recklinghausen, "L'enseignement de la médecine. Son histoire, ses conditions et son but", in Revue intrenationale de l'enseignement, no 07,1884, pp. 135-156.

[2] - لمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص، يمكن العودة لمقال:

Laurence Moulinier. "L'originalité de l'école de médecine de Montpellier" in La Schola Salernitana e lealtre, Salerno, 2002, pp.101-126.

ثانيا: صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل الأدب

بلغ الأدب العربي شأوا كبيرا ابان حكم المسلمين لجزيرة صقلية وان طغى الشعر عليه. وقد بزغت فيه مجموعة أسماء ضاهت الأسماء التي ذاع صيتها في الأندلس. ولكن بعد انتقال الحكم للنورمان، بدأت مرحلة سيادة أدب من نوع مختلف توزع بين نصوص لاتينية وأخرى عامية. فبدا بيت الأدب العربي خاليا من سكانه برحيل معظمهم.

ومن ثم، كان على ثلة من أدباء العربية الذين آثروا مواصلة المقام بصقلية الانضمام الى نفر من الأدباء المسيحيين والمشاركة سويا بنصيب في "المشروع الثقافي" الذي بدأت مكوناته ترتسم مع بداية حكم روجر.

وقد كان معظم أولئك الأدباء من أهل الشعر. خصهم إحسان عباس بصفحات في كتاب "العرب في صقلية". أورد فيها أسماءهم وتحدث عن نماذج من اسهاماتهم. الأمر الذي يعفينا عناء العودة لهذه الجوانب والتركيز على اسهامات الأدباء المسيحيين وإبراز صيغ الانفتاح والمشاركة بينهم وبين المسلمين خلال الحقبة النورمانية.

ولا بأس من التوضيح في البدء بأن معظم الباحثين المحدثين والمعاصرين المهتمين بتاريخ الأدب الايطالي لا يعيرون لإنتاج هذه الحقبة أي اهتمام بدعوى أن اللغة الايطالية لم تكن معروفة وقتها. ولذلك يبدؤون تاريخ الأدب في ايطاليا بالحديث عن دانتي. وقلة منهم يجعلون النصوص الشعرية التي صاغها بعض أقطاب "المدرسة الصقلية" التي كانت نشيطة في عهد فردريك الثاني مجرد مقدمة للأدب الايطالي. ولا ندري لماذا يتم التغاضي عن النصوص التي تعود للفترة الممتدة بين عهدي روجر الأول وفردريك الثاني بما فيها النصوص التي وضعها شعراء العربية الذين ظلوا مقيمين بصقلية.

وبناء عليه، فإننا نميز في تلك النصوص بين نوعين من وجهة نظر كرونولوجية:

- نصوص واكبت عملية اكتساح الفرسان النورمان لجنوب ايطاليا وجزيرة صقلية.

- نصوص وضعت بعد مرحلة التأسيس وقيام المملكة النورمانية.

1) نصوص المرحلة الأولى

وضع نصوص هذه المرحلة مثقفون من أصول نورمانية. وتتمثل في مجموعة قصائد وضعها أمَتوس المنتكَسنوسي (Amatus Casinensis) الذي تحدثنا عنه كاخباري وتحدثنا عن إخباريته في مبحث من هذا الفصل. وتعتبر تلك القصائد، مع الأسف، في عداد النصوص المفقودة. وأهمها، حسب بيير توبير (Pierre Toubert)، قصيدة نظمها حوالي سنة 1080 ميلادية وأهداها للبابا غريغوري السابع[1].

أما نصوص تلك المرحلة التي قدر لها أن تصبح متداولة بين الباحثين، فتتمثل في بضعة مقاطع أو فقرات صاغها الاخباري كُفريدوس مَلاتيرا (Gaufridus Malaterra) في قالب شعري ضمن كتابه "تاريخ القمط روجر وأخيه روبير كُيسكار". كما تتمثل في اخبارية وليام البوليانوسي (Guillelmus Apuliensis) المشهورة "بانجازات روبير كُيسكار". وقد صاغ محتواها في شكل قصيدة مطولة من 2832 بيتا موزعة على خمسة "كتب" راعى في ترتيبها تسلسل الأحداث. رغم أنه لم يكن حريصا على ذكر السنوات كما يفعل الاخباريون وواضعو الحوليات. وقد صاغ مجموع القصيدة في كل "كتاب" على شكل مقاطع. وكل مقطع عبارة عن أبيات سداسية مؤلفة من ست تفعيلات أو وحدات جرسية[2]. وتمثل هذه القصيدة أبرز قصائد تلك المرحلة.

تتناول اخبارية كل من كُفريدوس مَلتيرا ووليام البوليانوسي الانجازات العسكرية التي حققها الفرسان النورمان وزعماؤهم الأوائل كما ذكرنا في الفصل السابق. ولذلك، فإن المقاطع التي يتضمنها المؤلف الأول والقصيدة المطولة التي يمثلها المؤلف الثاني تتصل بتلك الانجازات. بمعنى أنها تتغنى بها وتمجد أبطالها. ويتضح هذا الأمر اذا علمنا بأن عنوان المؤلف الأول يتضمن عبارة "gestis" وتعني الأفعال. بينما يتضمن عنوان

---

[1] - أنظر ما أورده حول تلك القصائد في مقاله:

" L'historiographie italo-normande au XIe siècle" , Le Moyen Age, Tome CXI, 2005, pp. 451-354.

وانظر كذلك مقدمة نسخة اخبارية أمتوس المنتكسنوسي التي سبق أن أحلنا عليها.

[2] - أنظر في هذا الشأن:

Edoardo D'Angelo, "Modèles classiques de l'hexamètre historiographique normand", in L'historiographie médiévale normande et ses sources anti-ques, Actes du colloque international de Cerisy-la-Salle (8-10 octobre 2009), Paris, Presses Universitaires de Caen, Caen 2014, pp. 307-326.

المؤلف الثاني عبارة "gesta" وتعني الأحداث. وقد ترجم الباحثون الفرنسيون المعاصرون العبارتان ب: "gestes et actes". وترجمهما الباحثون الأنجليزيون بلفظة "deeds". ولذلك يمثل المؤلفان من هذه الوجهة امتدادا للشعر الملحمي الذي صيغت أبرز نماذجه في عهد الاغريق. ولكن كتابتهما تمت باللغة اللاتينية التي كانت اللغة العالمة المستعملة من قبل المثقفين الكاثوليك في الغرب المسيحي.

2) نصوص المرحلة الثانية

ساهم في وضع نصوص هذه المرحلة أدباء مسيحيون من أصول اغريقية وآخرون من أصول لاتينية وأدباء مسلمون.

أ) اسهامات الأدباء المسيحيين الاغريق

تمثلت اسهامات هذه الطائفة في نصوص قصيرة نثرية، بعضها يتكون من جملة وبعضها من فقرة، وفي نصوص منظومة تعرف بالإبگرامات (les épigrammes) تتألف من بضعة أبيات. منها ما تم نقشه على جدران بعض قصور الملوك النورمان. ومنها ما تم نقشه على جدران الكنائس الكبرى والكاتدرائيات وعلى أضرحة بعض مدافن رجال ونساء من علية القوم. بينما تم نقش نماذج قليلة منها على أواني خزفية أو معدنية.

وقد اهتم بتلك النصوص عدد من الباحثين. من بينهم اندري گيو (André Guillou) الذي قام بجرد ما يناهز 231 نصا منها وضعت في مختلف مناطق شبه جزيرة ايطاليا. قام بدراستها تبعا لتوزيعها الجغرافي، أي وفق المقاطعات والحواضر التي وضعت بها. وحاول تحديد تاريخ وضع كل نص منها. كما قام بترجمة فحواها[1]. ومن بين تلك النصوص:

- نص نثري منقوش على حجرة مصقولة مثبتة على جانب من قنطرة تقع على نهر يجري بمحاذاة بلدة سيزارو (Cesaro)، يخلد روجر الثاني الذي شيد تلك القنطرة قبيل سنة 1130 ميلادية حين كان قمطا[2].

---

[1] - أنظر كتابه:

Recueil des inscriptions grecques médiévales d'Italie, Rome, Publications de l'Ecole Française de Rome, 1996.

[2] - نفس المرجع، ص. 195.

- نص منظوم، من جنس الإبكْرامات رغم طوله لأنه مؤلف من ستة عشر بيتا وضعت سنة 1149 ميلادية. وهو نص منقوش على أحد أعمدة كاتدرائية مسينا يخلد نائب أسقف هذه المؤسسة الدينية ويعدد مناقبه[1].

- نص منظوم مؤرخ في الثامن من يناير 1198 ميلادية. يتألف من أربعين بيتا موزعة الى ثلاثة أقسام ومنقوشة على ثلاث صفائح معدنية مثبتة على تابوت حجري لقبر يقع بأحد مدافن مسينا[2].

لا يحدد النص هوية الدفين. ولكنه يفيد بأنه ينحدر من أسرة نبيلة. يعدد القسم الأول من النص شيم الدفين ونبله وكرمه خلال حياته. ويذكر قسمه الثاني بمصير الانسان وفناء الحياة الدنيا وزوال نعمها[3].

والملاحظ أن بنية النص، كما أورده أندري كْيو، تكاد تشبه، رغم طوله، بنية النصوص المنقوشة على شواهد القبور في بعض البلاد الاسلامية كالمغرب مثلا حيث يحمل الشاهد المثبت عند رجلي الدفين عبارة "يا واقفا على قبري أدع لي بالرحمة والمغفرة". بينما تنقش على الشاهد المثبت عند رأس الدفين معلومات حول هويته وتاريخ وفاته.

وعلى هذا النحو، فإن مطلع النص المثبت على القطعة المعدنية الأولى يتضمن عبارة "أيها الأجنبي الداخل الى هذه الكنيسة، اقترب وتأمل هذا الضريح. انه لا يترك أي انطباع عن مجد المدفون بداخله. انه سليل أسرة مرموقة وأصيلة..."[4]

ومن بين تلك النصوص كذلك، نص منظوم يتألف من اثنين وعشرين بيتا منقوش على قطعة رخام مثبتة على ضريح ثيودولي (Théodoulé) أم جورج الأنطاكي أمير أمراء البحر[5].

تشبه بنية هذا النص أيضا بنية النصوص المنقوشة على شواهد قبور مسلمي المغرب. فهو يذكر اسم الدفينة (Théodoulé) وتاريخ وفاتها (31 يناير 1140 م.). ثم يعدد مناقبها ويذكر بأنها الآن (أي بعد وفاتها) ترفل في ثوب كما تفعل العروسة ليلة زفافها[6].

---

[1] - نفس المرجع، ص. 204.
[2] - نفس المرجع، ص. 205.
[3] - نفس المرجع، ص.ص. 206-207.
[4] - نفس المرجع، ص. 206.
[5] - نفس المرجع، ص. 211.
[6] - نفسه، ص. 212.

وعموما، تعد تلك النصوص من حيث البنية، امتدادا لجنس أدبي اشتهر به الاغريق القدامى يعرف بالإبكْرامات (les épigrammes) أو النصوص الابكْرامية رغم طول بعضها. كما أنها تعكس جانبا من منظومة قيم وفكر اغريقي صقلية.

وفضلا عن هذه النصوص، تمثلت اسهامات الأدباء المسيحيين من أصول اغريقية في بضع قصائد وضعها ثلة من الذين كانوا يرتادون قصور الملوك النورمان الذين حكموا خلال هذه المرحلة. وأهم القصائد، هي تلك التي وضعها أوجنيوس الصقلي أو البلرمي (Eugenius Siculus) (المتوفى سنة 1202 ميلادية).

لم يكن أديبا في الأصل. بل كان موظفا يشرف على ديوان الجبايات في عهد غليوم الثاني. ثم عين أميرا للبحر بين سنتي 1190 و1194 في عهد الملك تانكريد. كان ملما باللغة العربية. ولذلك اهتم بترجمة بعض النصوص الاغريقية والعربية الى اللاتينية، كما سنذكر ذلك في موضع لاحق. واهتم، الى جانب الترجمة بنظم الشعر. وقد نظم، حسب افادات كْيون ردولف (Guilland Rodolphe) في مقال خصه للموضوع، ما يناهز 24 قصيدة كان فيها مقلدا لبعض الشعراء البيزنطيين أكثر من كونه مبدعا[1]. ويضيف مؤلف المقال في موضع آخر من مقاله بأن أوجنيوس الصقلي تناول في تلك القصائد مجموعة أغراض. وخص بعضا منها لمدح الملك غليوم الثاني ولي نعمته[2].

ب) اسهامات الأدباء المسيحيين اللاتين

تمثلت اسهامات هذه الطائفة في النصوص اللاتينية القصيرة المنظومة التي كانت تنقش بدورها على الجدران الى جانب النصوص الاغريقية التي أشرنا اليها.

ولكن أهم النصوص الشعرية بالمفهوم المتعارف عليه، تمثلت في القصيدة المطولة التي وضعها الراهب ببتروس الإبولي (Petrus de Ebulo) الشاعر والطبيب والاخباري المنحدر من جنوب ايطاليا (والمتوفى بعد سنة 1220 ميلادية).

---

[1] - أنظر مقاله الموسوم ب:

"Eugenii Panormitani Versus Iambici. Edidit, italice reddidit, commentario instruxit Mareelkis Gigante. Istituto Siciliano di Studi Bizantini e neoellenici (Testi, 10). Palermo", in Revue des Etudes grecques, 1964, pp. 385-386.

[2] - أنظر المقال، ص. 385. وكذلك مداخلة كرولينا كوبان التي سبقت الاحالة عليها، ص ص. 366-370.

وتكاد تشبه إخبارية وليام البوليانوسي في كونها عبارة عن كتاب صاغ المؤلف محتواه في قالب قصيدة تتألف من 1670 بيتا موزعة على ثلاثة أقسام ومرفقة بعدد كبير من الرسوم التوضيحية (des illustrations) والمنمنمات (des miniatures)[1].

ونذكر بما قلناه عن هذا المؤلف في الفصل السابق، بأن واضعه تناول فيه الحرب التي دارت رحاها بين الملك هنري السادس وتانكريد الذي أراد اغتصاب السلطة بعد وفاة الملك غليوم الثاني. وقد خص القسم الأكبر منه لمدح الملك هنري السادس وتمجيد انتصاراته. ولذلك جاء الكتاب-القصيدة على منوال كتاب- قصيدة ببتروس الإبولي.

ج) اسهامات الأدباء المسلمين

تمثلت اسهامات الأدباء المسلمين خلال هذه المرحلة في النصوص الشعرية القصيرة والقليلة التي تم نقشها على جدران بعض القصور وفق افادات احسان عباس[2]. الذي يورد بيتا من نص نقش على أحد جدران قصر الملك غليوم الثاني يقول:

تأمّل وقِفْ ترَ خير إيوان لخَيرِ ملوكِ الأرض غليالم الثاني[3]

ولعل أهم الاسهامات الشعرية، تمثلت في القصائد التي وضعها الشعراء الذين ظلوا مقيمين بصقلية بعد نهاية الحكم الاسلامي لها. فقد نظموا قصائد في مختلف أغراض الشعر. ولكنهم اشتهروا بكونهم امتدحوا الملوك النورمان الذين حكموا خلال هذه المرحلة، وأهمهم روجر الثاني، الذي قالوا فيه وفي قصوره ومتنزهاته عدة قصائد.

وإن الذي يهمنا في هذا المقام، هو أن الانتاج الشعري الذي وضعه مسيحيون منذ بداية الحقبة النورمانية حتى بداية عهد فردريك الثاني كان قليلا جدا اذا ما قورن على سبيل المثال بما وضعه المسلمون خلال حكم الأمراء الكلبيين. وقد غلب الطابع

---

[1] - لا تحمل القصيدة عنوانا محددا. وتعرف لدى الباحثين باسم:

Liber ad honorem Augusti sive De rebus siculis

وقد سبق أن تحدثنا عنها وأحلنا عليها في الفصل السابق. تم نشرها مرفقة بالرسوم التوضيحية والمنمنمات في طبعات حديثة. من بينها نسخة ألمانية صدرت ببرلين سنة 1994 ونسخة ايطالية صدرت بمدينة بوتنسا (Potenza) سنة 2020.

[2] - احسان عباس، العرب في صقلية، ص. 387.

[3] - نفس المرجع ونفس الصفحة.

الملحمي على القصائد التي وضعت خلال المرحلة الأولى من الحقبة النورمانية تماشيا مع الأحداث الكبرى التي شهدتها صقلية وتماشيا مع طبيعة النورمان الذين حطوا الرحال بها وارثين عن أسلافهم تقليد التغني بانجازات الزعماء العسكريين[1]. ولذلك تمحورت تلك القصائد حول الزعماء وحول الفروسية والفرسان.

ولم تبتعد كثيرا القصائد التي وضعت بعد تأسيس المملكة عن شخصية الزعيم الفارس. فقد تمحورت بدورها حول الزعماء الذين أصبحوا يحملون فوق رؤوسهم تاج الملك. فيما شكل البلاط الفضاء الرئيسي الذي ألقيت فيه قصائد تلك المرحلة. وقد زكى الشعراء المسلمون هذا التوجه بما نظموه من قصائد.

وبناء عليه، تمحور الانفتاح والمشاركة بين الشعراء المسيحيين والمسلمين حتى بداية عهد فردريك الثاني حول شخص الملك. بينما مثل القصر وملحقاته الفضاء الذي تجسد فيه الانفتاح والمشاركة. وتبعا لذلك، غلب على عدد من القصائد التي نظمها الشعراء المسلمون الذين ظلوا مقيمين بصقلية مدح الملك ووصف قصور بلرم وما يتصل بها من منشآت كالحدائق وغيرها. بل مجد بعض واضعي تلك القصائد أولئك الملوك ونعتوهم بالقياصرة. فكانوا من هذه الوجهة أشبه بواضعي القصائد النورمانية التي تحدثنا عنها رغم أنهم لم يصوغوا قصائدهم في قالب ملحمي.

ونذكر من بين هؤلاء الشعراء، عبد الرحمن بن محمد بن عمر البثيري الصقلي وعبد الرحمن بن أبي العباس الاطرابنشي وعمر بن حسن النحوي الصقلي وعثمان بن عبد الرحيم بن بشرون الأزدي الصقلي.

فقد تغنى الأول بمملكة روجر الثاني وبقصوره العلية. فقال في احدى قصائده:

ما عيشة تصفو سوى بذُرى صقليّــةٍ هنيّه

في دولــة أرْبَـتْ علـى دول الملوك القيصريّه[2]

---

[1] - أنظر في هذا الشأن:

Gaston Paris,"La Sicile dans la littérature française du Moyen Age", in Romania, recueil trimestriel consacré à l'étude des langues et des littératures romanes, publié par Paul Meyer et Gaston Paris, F. Vieweg, Libraire Editeur, 1876, p. 109.

[2] - أنظر أبا عبدالله محمد بن محمد العماد الأصبهاني (توفي سنة 597هـ)، كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب ، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحي، الدار التونسية للنشر، تونس 1986، الجزء الأول، ص. 23.

وقال فيها أيضا:

وقصورِ منصوريـةٍ حطّ السّرورُ بها المطيّه
أعجِبْ بمنزلها الذي قد أكمل الرحمان زِيّه
والملعبِ الزاهي على كل المباني الهندسيّه[1]

وتغنى الثاني بمنية الفوارة وربوعها الخضراء ومياها المتدفقة. فقال:

فوّارةَ البحريـنِ جمّعْـتِ المُنـى عيش يطيبُ ومنظر يُستعظَمُ
قُسمتْ مياهُك في جداولَ تسعةٍ يا حبّذا جرَيانُها المتقسِّـمُ
في مُلتقى بحرَيك معترَكُ الهـوى وعلى خليجِكِ للغَـرام مخيَّمُ[2]

ووقع الثالث في الأسر. فمدح روجر الثاني عله يشفق من حاله ويطلق سراحه. فقال:

والله لولا المَلْك روجار الذي أزدى لحبيّه عظيمَ وداده[3]

وقال فيه أيضا:

يهتزّ للجدوى اهتـزاز مهنّـد يهتزّ فـي كفيـه يـوم جـلادِه
ويضيء في الديجور صبحُ جبينه فتخال ضوءَ الشمس من حسّاده
ومطالع الجـوزاء أرض خيامـه والنجـم والقمـران من أوتـاده
وإذا الأمور تشابهـت فلعَضْبه خـطٌ يبيّـض سودَهـا بمـداده[4]

ويبدو أن مشاركة المسلمين في "ديوان الشعر النورماني" كانت مكثفة خلال عهد روجر الثاني. ولكنها تراجعت خلال عهد أسلافه. لأن لا احد من شعراء العربية مدح

---

[1] - نفس المصدر والجزء والصفحة.
[2] - نفس المصدر، والجزء، ص. 25.
[3] - العماد الأصبهاني، المصدر السالف الذكر، الجزء الأول، ص. 45.
[4] - نفس المصدر ونفس الجزء ونفس الصفحة..

خلفاء روجر الثاني حتى يسجل التاريخ اسمه كما يذكر احسان عباس[1]، باستثناء ابن قلاقس الاسكندري الذي زار صقلية سنة 563 هجرية / 1168 ميلادية. وأقام بها زهاء سنتين قال خلالها شعرا كثيرا. واختلف الباحثون بين قائل بأنه تضمن قصيدة مدح في حق غليوم الثاني[2] وقائل بأنه لم يقم بذلك اطلاقا[3]. وإن قصيدة المدح التي نظمها في حق احد المسيحيين قد تكون في أحد وزراء غليوم الثاني[4]. ورغم ذلك لا ينكر هؤلاء الباحثون بأنه نظم عدة قصائد خلال مقامه في صقلية تنوعت بين مدح بعض الأعيان المسلمين وبين وصف بعض المشاهد والمجالس[5].

ونعتقد من جانبنا أنه قدم الى صقلية من الخارج وساهم بدوره في اثراء "ديوان الشعر النورماني". وقام من خلال هذه المبادرة بعملية "التجاوز". وساهم في عملية الانفتاح والمشاركة التي نحن بصدد الحديث عنها.

ومهما يكن من أمر، فالراجح أن تراجع المسلمين عن المساهمة اتضح أكثر في عهد فردريك الثاني. لأن المصنفات القديمة والأبحاث الحديثة والمعاصرة لا تورد أسماء شعراء ناطقين باللسان العربي ضمن الشعراء الذين يؤلفون ما يعرف "بالمدرسة الصقلية". ورغم ذلك، لم تختف المشاركة الاسلامية تماما. فقد تحولت من مشاركة مباشرة بواسطة شعراء بعينهم، الى مشاركة غير مباشرة من خلال التأثير الواضح للشعر العربي في شعر أعضاء تلك "المدرسة". وتجلى هذا التأثير في قصائد الحب والهيام، المعروفة بشعر التروبادور، التي حيكت أكثر نماذجها على منوال شعر الغزل عند العرب بمن فيهم عرب صقلية.

---

[1] - أنظر كتابه، العرب في صقلية، ص. 287.

[2] - من بين هؤلاء محمد زاهد أبو غذة الذي يذهب في مقال تحت عنوان: "حدث في الثالث من شوال وفاة الشاعر ابن قلاقس" الى القول بأن شاعرنا مدح غليوم الثاني بقصيدة مطلعها:

يقرلغُلْيلْم المليك ابن غليلم ... سليمانُ في مُلك وداودُ في حُكمِ

أظر المقال على موقع رابطة العلماء السوريين https://islamsyria.com/site/show_articles

[3] - هذا ما يقول به كا من احسان عباس في كتاب العرب في صقلية، 287 وعبد الرحمن مشهور الحبازي في كتابه ديوان ترسل ابن قلاقس، دار الكتب العلمية، بيروت 2016

[4] - احسان عباس، العرب في صقلية، ص. 288.

[5] - هذا ما يتبناه كل من احسان عباس في كتاب العرب في صقلية، 287 وعبد الرحمن مشهور الحبازي في كتابه ديوان ترسل ابن قلاقس، دار الكتب العلمية، بيروت 2016.

ودون الخوض في تفاصيل هذا الموضوع الذي تناوله كثير من الباحثين في حقل الأدب من العرب والأوربيين، نستطيع القول بأن حضور الغزل العربي في ذلك الشعر يمثل شكلا من اشكال انفتاح واضعيه على الشعر العربي خاصة وعلى الثقافة الاسلامية عموما.

ثالثا: صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل الجغرافيا

لا نجازف اذا قلنا بأن الشريف الادريسي يختزل بمفرده كل ما يمكن أن يقال عن صيغ الانفتاح والمشاركة بين المثقفين المسلمين والمسيحيين رغم أنه يصنف عموما من بين علماء الجغرافيا. ويقدم مؤلفه نموذجا لما يمكن أن يفضي اليه الانفتاح والمشاركة بين مثقفي مختلف الديانات اذا حسنت النيات وأزيحت الخلفيات والعقبات. بدليل أن هذا المؤلف تجاوز عصره ومازالت مضامينه تكتسي راهنية وكأن تاليفه تم بالأمس.

فقد تخطى الشريف الادريسي عائق اللغة والدين وأقام في بلرم. ووجد في شخص روجر الثاني من رعاه وهيأ له ظروف البحث. فصمم شكلا دائريا "عظيم الجرم مصنوع من الفضة الخالصة"[1] يمثل الكرة الأرضية وما يوجد فوقها من مجالات يابسة ومجاري مائية وشبكة طرقية. ثم وضع دليلا يشرح مضامين ذلك الشكل هو "الكتاب الروجري" أو "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق".

ولم يقتصر الانفتاح والمشاركة على شخصين. أحدهما ملك مسيحي، أشرف شخصيا على المشروع وقام بتمويله، وأحدهما مثقف مسلم قام بتنفيذه. بل اتسعت دائرته لتشمل فريقا من المثقفين ومن المتعلمين المسيحيين والمسلمين. جابوا مختلف مناطق المعمور آنذاك وعاينوا وحداتها الطبيعية عن كثب وتعرفوا على سكانها وعلى أنماط عيشهم وعاداتهم وعمرانهم وما الى ذلك. فوضعوا رهن اشارة الادريسي ما توفر لديهم من وثائق ومعلومات ومعطيات ضافية ودقيقة استغلها في مؤلف استغرق انجازه حوالي خمسة عشر سنة[2].

وقد حظي باهتمام المثقفين من مختلف الأعراق والديانات. وما زالت صفحاته الى اليوم مفتوحة أمام الباحثين المعاصرين المهتمين بجغرافية العالم القديم والباحثين

[1] - كتاب نزهة المشتاق، مقدمة المؤلف، ،ص. 6.

[2] - أنظر مقدمة كتاب نزهة المشتاق، ص.6.

المهتمين بقضايا الانسان والمجال في العصر الوسيط والباحثين المهتمين بجغرافية الأديان والعقائد. اذ لا تكاد تخلوا أبحاثهم ودراساتهم من معلومات ومعطيات مستقاة منه كيفما كانت اللغة المتبناة في انجاز تلك الأبحاث والدراسات.

بل الغريب في الأمر أن سيرة الادريسي الذاتية التي كتب عنها الكثير منذ نهاية القرن التاسع عشر عادت اليها احدى الباحثات منذ بضع سنوات في محاولة منها ربط الادريسي بصقلية. حتى أن ما قالته في الموضوع يكاد يترك الانطباع بأنه ولد بها. ولا شك أن هذا الأمر ينهض دليلا على دوره الرائد في حقل الجغرافيا الطبيعية والبشرية[1].

ومن اللافت للانتباه أن روجر الثاني الذي شجع الادريسي على الانفتاح على تراث الشرق والغرب والمشاركة في تعريف الصقليين ومسيحي الغرب بجغرافية العالم، قام بذات العمل مع مثقف مسيحي هو نيلوس دوكْسَباتريس (Neilos Doxapatres) الإغريقي الأصل الذي كلفه بوضع مؤلف حول جغرافية بعض المؤسسات الدينية.

ويشترك دوكْسَباتريس مع الادريسي في كون المعلومات المتوفرة حول سيرتهما الذاتية قليلة ويكتنفها بعض الغموض. وخصوصا ما يتعلق بالأسباب التي دفعتهما للرحيل من موطنهما الى بلرم. فالادريسي رحل اليها من قرطبة ودوكسباتريس رحل اليها من القسطنطينية.

ويختلف دوكسَباتريس عن الآدريسي في كونه كان مشبعا بثقافة دينية لاهوتية أهلته لكي يحظى بثقة روجر الثاني. فأنجز بين سنتي 1142 و1143 ميلادية، مؤلفا يعرف ب"مقالة حول البطريرقيات الخمس"[2].

وقد تناول في هذا الكتاب الذي حرره باللغة الاغريقية، التوزيع الجغرافي لتلك المؤسسات الدينية وما يتفرع عنها من أسقفيات وغيرها من المراكز الدينية. كما تتبع مراحل نشأة وتطور كل مؤسسة على حدة.

---

[1] - أنظر مداخلة أنليز نيف (Annliese Nef) الموسومة ب:

"Al-Idrisi. Un complèment d'enquete biographique ", in Géographes et voyageurs du Moyen Age, ouvrage dirigé par Henri Bresc, Emmanuelle Tixier du Mesnil, Presses Universitaires de Nanterre, Nanterre, 2010.

[2] - لم يتم نقل هذا الكتاب الى اللاتينية حتى مطلع القرن السابع عشر. أنظر عنهك

Laurent Vitalien, "L'œuvre géographique du moine sicilien Nil Doxapatris", Revue des études byzantines, no 185, 1937, pp. 5-30.

ورغم أن دوكسَباتريس أبان عن ثقافة واسعة ودراية بالموضوع كما أكد ذلك ڤتليان لوران (Vitalien Laurent) في عرض خصه للكتاب سنة 1937[1]، فإن هذا الأخير لم يكن له صدى في الغرب المسيحي كالصدى الذي كان لكتاب الشريف الادريسي. لأن مؤلفه تطرق، على هامش الموضوع الرئيسي، لقضايا نظرية ذات صلة بالمسيحية أوّلَها وفق وجهة نظر رجال اللاهوت البيزنطيين. ولم يكن البابوات وكبار رجال الدين الكاثوليك يشاطرونهم الرأي فيها من قريب أو بعيد[2].

رابعا: صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل الترجمة

رغم اجماع الباحثين حول الدور الريادي الذي قامت به الأندلس في مجال نقل المعارف الاسلامية واليونانية الى أوربا، فلا مجال لإنكار الدور الذي اضطلعت به صقلية. ونعتقد أن هذه الأخيرة تميزت عن الأندلس في كونها احتلت موقعا وسطا بين البلاد الاسلامية وبلاد اليونان والعالم اللاتيني. كما أنها خضعت لسيطرة البيزنطيين ثم المسلمين ومن بعدهم المسيحيين. وأضحت خلال عهد النورمان موطنا لمثقفين ملمين بلغة أو أكثر من لغة من بين اللغات التي كانت متداولة آنذاك: العربية واللاتينية والإغريقية والعبرية. ولذلك قام عدد منهم بدور متميز في نقل تلك المعارف عن طريق الترجمة. وكان من نتائج ذلك ظهور أول "مدرسة للترجمة" بصقلية.

وقبل الحديث عن بعض أقطابها ودورهم في تعميم المعارف الاغريقية والعربية-الاسلامية بين المثقفين والمتعلمين من أتباع الديانات الثلاث، لا بأس من التذكير بأن بلاط الملك روجر الثاني كان لوحده مركزا متعدد اللغات. فقد كان يرتاده ثلة من أبرز ممثلي اللغات المتداولة في العالم آنذاك وهم: كريستودولوس (Christodulus)، أمير البحر، الاغريقي اللسان والذي اختلف الباحثون القدامى والمحدثون في أصله بين قائل بأنه مسيحي اغريقي الأصل وقائل بأنه مسلم. وجورج الأنطاكي (Georges d'Antioche)، مستشار الملك وأمير أمراء البحر. وهو اغريقي الأصل كان فيما يبدو يتحدث باللسان العربي بحكم خدمته في بلاط أمراء بني زيري بإفريقية قبيل هجرته الى صقلية ودخوله

[1] - "L'œuvre géographique du moine sicilien Nil Doxapatris", Revue des études byzantines, 1937, pp. 5-30.

[2] - أنظر في الموضوع:

Elena N. Boeck, Imagining the byzantine past, Cambridge University Press, 2015, p. 75.

في خدمة روجر الثاني. ونيلوس دوكسَباتريس (Neilos Doxapatres) الإغريقي الأصل واللسان. كان مكلفا بوضع مؤلف حول جغرافية المؤسسات الدينية كما ذكرنا فيما مضى والشريف الادريسي المسلم العربي اللسان، الذي كان يتردد بدوره على بلاط روجر الثاني في اطار اعداده لكتاب "نزهة المشتاق".

كما كان يرتاد قصر بلرم نفر من كبار الموظفين المشرفين على الدواوين وعدد من الخَدَمة المكلفين بالإنشاء وتحرير المراسيم الملكية والوثائق الصادرة عن الدواوين بمختلف اللغات.

ومما لا شك فيه أن تعدد لغات العاملين بالبلاط النورماني وتعدد لغات المثقفين المترددين عليه بانتظام والحاجة الى اصدار وثائق بمختلف اللغات استجابة لحاجيات مجتمع متعدد اللغات، جعلت الترجمة العلمية تحتل موقعا متميزا ضمن اهتمامات المثقفين.

وقد رأينا عند الحديث عن صيغ الانفتاح والمشاركة بين مثقفي صقلية في حقل الطب، كيف أن الحاجة لتطوير الجوانب النظرية وتقنيات وطرق العلاج، دفعت قسطنطين الافريقي الى ترجمة عدة مؤلفات الى اللاتينية منذ التحاقه بمدرسة سالرنو سنة 1075 ميلادية. ففتح أعين مثقفي صقلية على الكنوز التي يزخر بها التراث الاغريقي والتراث العربي – الاسلامي. فانكب عدد منهم على الترجمة من العربية أو الاغريقية الى اللاتينية.

وهكذا قام هنريكوس اريستيبوس (Henricus Aristippus) الاغريقي (المتوفى سنة 1170 م.) بنقل بعض مؤلفات أفلاطون وأرسطو وأقليدس من الاغريقية الى اللاتينية[1]. وقام أوجنيوس الصقلي أو البلرمي (Eugenius Siculus) (المتوفى سنة 1202م.) والذي تحدثنا عنه شاعرا، بنقل كتاب "البصريات" لكلوديوس بطليموس من العربية الى اللاتينية. كما ترجم كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع من العربية الى الاغريقية[2].

---

[1] - أنظر حول الموضوع مقال:

Daniele Molinini, "The First Sicilian School of Translators", Nova tellus, vol., 27, no 1, 2009 , pp. 191-205.

[2] - أنظر مقدمة كتاب:

Albert Lejeune, L'optique de Claude Ptolémée, dans la version latine d'après l'arabe de l'émir Eugène de Sicile, Leiden-New York-Koln, 1989.

وتزايد عدد المثقفين المنفتحين على التراث الاغريقي والتراث العربي – الاسلامي في عهد فردريك الثاني الذي أبدى اهتماما ملحوظا بثقافة القدماء. ولكنه كان فيما يبدو أكثر ميلا لثقافة العرب والمسلمين وفق افادات هنري بريسك[1]. وهذا ما يفسر كون أكثر المشتغلين بالترجمة في بلاطه كانوا من المختصين في نقل المؤلفات المكتوبة بالعربية نحو اللاتينية. وكان أبرزهم ميخائيلوس سكوتوس (Michaelus Scotus) الايكوسي الأصل (المتوفى سنة 1235 م.).

ويستفاد من بعض الدراسات أنه كان يملك معارف في عدة حقول معرفية. من بينها الفلسفة واللاهوت والطب والكيمياء والفلك. كما كان ملما باللغة العربية. ولذلك رحل الى طليطلة للاطلاع عن كثب على بعض المؤلفات. فاحتك فيها ببعض المشتغلين بالترجمة. وقام بنقل كتاب "الهيئة" لأبي اسحاق نور الدين البطروجي من العربية الى اللاتينية. كما شرع في ترجمة "كتاب الحيوان" لأرسطو الى اللاتينية نقلا عن نسخة عربية كان قد أنجزها يوحنا ابن البطريق.

وأنهى تلك الترجمة في مدينة بلونيا التي رحل اليها سنة 1220 ميلادية. ثم انتقل منها الى بلرم سنة 1227 ودخل في خدمة فردريك الثاني حتى وفاته. فنقل الى اللاتينية خلال هذه الفترة رسالة ابن سينا "في النبات والحيوان". وهي الرسالة التي استغلها الملك- الامبراطور في مؤلف وضعه حول "فن القنص باستعمال الطيور".

وتفيدنا كوليت سيرا (Colette Sirat) بأن ميخائيلوس سكوتوس استفاد كثيرا في ترجمة هذا الكتاب من خدمات الحاخام اليهودي يعقوب بن أبي ماري بن شمشون الذي قام بمراجعة الترجمة ومقابلتها بالنص العربي نظرا لإلمامه باللغة العربية[2].

وتضيف كوليت سيرا بأن الحاخام المذكور يحتمل أن يكون قد راجع عدة مؤلفات نقلها سكوتوس الى العربية. ولم يكتف بالمراجعة، بل قام بدوره بترجمة بعض الكتب الخاصة بالمنطق والفلك من العربية الى العبرية[3].

---

[1] - أنظر في هذا الشأن مداخلته الموسومة ب:

"Frédéric II et l'Islam" , in Frédéric II (1194-1250) et l'héritage normand de Sicile, livre dirigé par Anne-Marie Flambard Héricher, Presses Universitaires de Caen, Caen, 2001, pp. 79-92.

[2] - Colette Sirat,"Les traducteurs juifs à la cour des rois de Sicile et de Naples" Documents, études et répertoires de l'Institut de Recherche et d'Histoire des Textes, no 42, 1989, pp. 169-191.

[3] - نفس المقال، ص. 170.

ولا بأس من الاشارة على هامش ذكر هذا الحاخام، الى أن مشاركة المثقفين اليهود في حقل الترجمة بصقلية كانت محدودة جدا أو تكاد تكون منعدمة خلافا للدور اللافت للانتباه الذي اضطلعوا به في الأندلس. اذ لم تحلنا مقدمات الأعمال المترجمة أو الدراسات الحديثة التي اهتمت بالترجمة في صقلية على أسماء يهودية باستثناء مقال كوليت سيرا الذي ورد فيه ذكر الحاخام يعقوب بن أبي ماري بن شمشون السالف الذكر ويهودا بن شلمون كوهن الذي كان مقيما بطيطلة. وانتقل منها الى بلرم بعد سنة 1235 ميلادية. ودخل في خدمة فردريك الثاني بوصفه "باحثا" مختصا في الفلك والجبر[1].

ومن المفيد التذكير في سياق الحديث عن الترجمة بأن بعض المثقفين من خارج صقلية، كانوا مقيمين بحواضر ايطاليا، انخرطوا بدورهم في حركة الانفتاح على التراث الاغريقي والتراث العربي – الاسلامي وشاركوا في عملية الترجمة. نذكر من بينهم جيراردو الكريموني (Gherardo da Cremona) (المتوفى سنة 1187 م.) وموسى البيرگامي (Moïse da Bergamo) (المتوفى حوالي سنة 1200 م.).

اشتهر الأول بولعه بالثقافة العربية الاسلامية. فرحل الى طليطلة من أجل النهل من منابعها. وأقام بهذه المدينة حوالي سبع سنوات تعلم خلالها اللغة العربية. ثم قام بترجمة زهاء سبعين مؤلفا من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية. من بينها مؤلفات لأرسطو وابن سينا والرازي والخوارزمي[2]. بينما اشتهر الثاني بكونه كان شاعرا مولعا باللغة والثقافة الاغريقيتين. شهد له البعض بكونه كان أبرز المتمكنين من اللغة الاغريقية في ايطاليا القرن الثاني عشر. ورغم ذلك رحل الى القسطنطينية للمزيد من النهل من المؤلفات الاغريقية والاحتكاك بالمثقفين البيزنطيين. وقام بترجمة مجموعة قصائد وبعض المقطوعات المنظومة الى اللاتينية. ولكن أشهر ترجماته تمثلت في نصوص من الكتاب المقدس نقلها من الاغريقية الى اللاتينية[3].

---

[1] - نفس المقال، ص. 175.

[2] - لمزيد من التفاصيل يمكن العودة لمقال دانييل جكار (Danielle Jacquart):

"Des traductions au fil de la plume et à la chaine ? Le cas de Gérard de Crémone",Cahiers d'études hipaniques médiévales, no 41, 2018, pp.111-123.

[3] - أنظر في هذا الشأن:

François Dolbeau, " A propos d'un florilège biblique traduit du Grec par Moïse de Bergame ", Revue d'Histoire des Textes, no 24 ,1994, pp. 337-358.

وانطلاقا مما تقدم، يتضح بأن الانفتاح والمشاركة بين المثقفين المهتمين بالترجمة أتاحا للمثقفين وعموم المتعلمين من أتباع الديانات الثلاث امكانية الاطلاع على نماذج كثيرة من التراث الانساني. كما ساهما في توحيد مرجعية أولئك المتعلمين. ولا شك أن ذلك ساهم في تمتين الروابط بين سائر افراد المجتمع.

وقد استطاع المثقفون العاملون في حقل الترجمة تحقيق هذه المساعي رغم أنه لم تتح لهم فرصة العمل سويا في اطار مؤسسة بعينها كما كان الشأن بالنسبة لأعلام الطب أو كما كان الشأن بالنسبة للشعراء الذين كانوا يلتقون من دون شك في البلاط الملكي أو في مناسبات خاصة.

ونعتقد أنهم بينوا للأجيال اللاحقة كيف يمكن تجاوز الانتماءات العرقية والدينية من أجل اثراء المعرفة الانسانية والإسهام في اقرار التعايش بين أفراد مجتمع متعدد الانتماءات والديانات. ولذلك مازالت الترجمة تعد الى اليوم احدى أدوات الانفتاح على الآخر.

خامسا: صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل العمارة

تعد العمارة من المجالات التي تجلى فيها الانفتاح والمشاركة بين مثقفي صقلي. فقد وضع بعض الذين اهتموا بها تصاميم المنشآت الكبرى وأشرفوا على مراحل بنائها. ولكن مصادر الحقبة النورمانية لم تحتفظ مع الأسف سوى بأسماء عدد قليل جدا منهم. ومن بينهم:

- جورج الأنطاكي (المتوفى سنة 1151 ميلادية) الذي تحدثنا عنه فيما مضى كأحد خدام روجر الثاني وكأحد أمراء البحر. وكان وراء بناء "قنطرة الأميرال" وكنيسة "مارتورانا" التي تحدث عنها ابن جبير باسم كنيسة "الأنطاكي".

- مايو برنسيس (Maio Barensis) (المتوفى سنة 1160) الذي كان موظفا ساميا في قصر روجر الثاني. ثم أصبح أميرا على أمراء البحر أيام حكم غليوم الأول. وكان وراء بناء كنيسة القديس كتالدو (San Cataldo).

- الأسقف گلتريوس أوفمليوس (Gualterius Ophamilius) (المتوفى سنة 1190) الذي خدم غليوم الأول وكان وراء بناء كنيسة "الروح القدس".

وبما أن الأمر يتعلق بمنشآت كبرى، تمر عملية بنائها بعدة مراحل، فإن المشاركة فيها لم تقتصر على المثقفين الذين وضعوا التصاميم وأشرفوا على البناء، بل شملت

فعاليات أخرى. كان من بينها البناؤون الذين قاموا بالتشييد والحرفيون المختصون في النقش والزخرفة الذين أنجزوا النقوش والزخرفة والتزيين.

وقد قدر لصقلية أن تخضع خلال العصر الوسيط لسيطرة البيزنطيين ثم المسلمين فالنورمان. فمثلت أحد المجالات الجغرافية في غرب البحر المتوسط الذي انتشرت فيه منشآت دينية ومدنية تحمل بصمات أتباع الديانات الثلاث.

ولكن بصمة أتباع اليهودية لم تكن واضحة على اعتبار أنه لم يكن لهم نصيب في تلك السيطرة. ولكن ذلك لا يمنع من القول بأنهم أقاموا عددا من المنشآت الدينية والمدنية لأنهم استوطنوا الجزيرة منذ القرون الميلادية الأولى كما ذكرنا في فصل سابق.

وتعكس المنشآت التي أقيمت خلال عهد البيزنطيين والمسلمين خصائص التقاليد المعمارية التي يتبناها هؤلاء أو أولئك. أما خلال الحقبة النورمانية، فحدث أن أصبحت تلك الخصائص مجتمعة في كل منشأة على حدَة. ويعد هذا الاجتماع، في اعتقادنا، صيغة من صيغ الانفتاح بين مختلف الفاعلين في مجال البناء والتشييد واشتراكهم في خلق منتوج جديد يعبر عن التعايش. وهذا ما تفصح عنه معظم المنشآت الكبرى التي أقيمت بين سنتي 1130 و1194 ميلادية، حيث جمعت من الوجهة الهندسية والفنية بين الخصائص البيزنطية المسيحية- الأورثوذوكسية والخصائص العربية الاسلامية والخصائص النورمانية المسيحية- اللاتينية. وتعد من أبدع المنشآت التي شيدتها مجتمعات العصر الوسيط. ويكفي أن نذَكّر بأن ابن جبير انبهر عند معاينة كنيسة "الأنطاكي"[1]. فلا غرو اذا وجدنا منظمة اليونيسكو تصنف سنة 2015 تسعة من بين تلك المنشآت ضمن التراث الانساني الواجب صونه والحفاظ عليه.

تقع تلك المشآت في الحاضرة بلرم وفي مدن مجاورة لها. وتتمثل في قصرين وقنطرة وثلاث كاتدرائيات وثلاث كنائس. هي على التوالي: قصر "النورمان" وقصر "عزيزة" وقنطرة "الأميرال" وكاتدرائية البلاط التابعة لقصر "النورمان" وكاتدرائية "مونريال" وكاتدرائية "تشيفالو" أو شيفولدي وكنيسة القديسة ماريا وكنيسة القديس كتالدو وكنيسة القديس يوحنا الارميتيين).

سنتحدث عن نماذج من هذه المنشآت مبرزين صيغ الانفتاح بين الفعاليات التي شيدتها ومبرزين كيف تجلت مشاركة كل طرف فيها من خلال هندستها وزخرفها.

[1] - أنظر ما قاله عنها في رحلته، ص.ص.. 273-274.

أ) القصر الملكي أو قصر النورمان

يقع هذا القصر في موقع حصين اقيم فيه حصن بونيقي (قرطاجني) يعود للقرن السابع قبل ميلاد المسيح. وظل يؤدي الوظيفة ذاتها في العهدين الروماني والبيزنطي. ثم تم تحويله الى اقامة أميرية في عهد الكلبيين. وابتداء من سنة 1072 اتخذه الملوك النورمان قصرا لهم.

وكان من بينهم روجر الثاني الذي قرر سنة 1130 ميلادية اضافة برج لتلك الاقامة. سماه برج "الجوهرية" (Gjoaria). كما أضاف اليها مصلى يعرف "بكتدرائية البلاط".

يتألف البرج من قاعتين فسيحتين متقابلتين. تسمى الأولى "قاعة الرياح" وتسمى الثانية "قاعة روجر" التي تكسو الأجزاء السفلى من جدرانها قطع من الرخام. بينما تكسو أجزاءها العليا فسيفساء ذهبية اللون ومزينة برسومات تمثل بعض مشاهد القنص ومشاهد حيوانات كالأسود التي ترمز للقوة ومشاهد طيور كالطاووس الذي يرمز للخلاص في الديانة المسيحية.

وتتخلل تلك المشاهد مشاهد أخرى تمثل الفهود وأشجار النخيل. وهي مشاهد ذات صبغة مشرقية بامتياز[1].

ب) قصر "عزيزة"

بدأ تشييد هذا القصر في عهد غليوم الأول سنة 1165 ميلادية. وتم الانتهاء من بنائه في عهد خلفه غليوم الثاني حوالي سنة 1175 ميلادية[2]. وهو عبارة عن منشأة مستطيلة الشكل تتألف من ثلاث طوابق.

---

[1] - أنظر النسخة الفرنسية من كتاب باتريزيا فابري (Patrizia Fabri):

Art et histoire. Palerme et Monréale, Firenze, Éditions Bonechi, 2005, pp. 8-15.

وكتاب وجيدة الصكوجي، تجليات فنون العمارة العربية الاسلامية بجزيرة صقلية، منشورات مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت 2017، ص. 113.

[2] - Giuseppe Caronia, La Zisa de Palerme, de l'histoire et de la restauration. Bari, Laterza éditeurs, 1982.

يقع هذا القصر في ضواحي بلرم. وكان عبارة عن اقامة يقصدها الملك للاستجمام والترويح عن النفس على غرار الاقامة الواقعة بمنية الرصافة التي شيدها عبد الرحمن الداخل بضواحي قرطبة على مشارف الوادي الكبير. وكذلك الاقامات التي شيدها ملوك الطوائف. ومن بينها "الصمادحية" التي أنشأها المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية.

ونعتقد من هذا المنطلق أن من شيدوا قصر "عزيزة" كانوا منفتحين على ثقافة العرب والمسلمين. ويتجسد هذا الانفتاح أيضا في ثلاثة مظاهر:

أولها في كونه يحمل اسم قصر "عزيزة" (Zisa). ولا نعلم ما اذا كانت التسمية مستمدة من لقب "المستعتز بالله" الذي كان يحمله الملك غليوم الثاني أم مستمد من اسم احدى الجاريات التي كان متيما بها؟ علما بأن القصر كان يقيم به عدد من حريم الملك.

وفي جميع الأحوال، فإن تسميته تذكر بالتسمية التي اطلقها الخليفة عبد الرحمن الناصر على احد قصور قرطبة. ونعني به قصر "الزهراء".

ثانيها في كونه شيد في منطقة مخضرة تتخللها بعض الجداول. وتسمى تلك المنطقة "Génoarde" (جنة الأرض). ولا مجال للاعتراض اذا قلنا بأن التسمية سنجد لها امتدادا في غرناطة التي تقع بها المعلمة المعروفة "بجنة العريف". وهي كما تدل على ذلك التسمية، عبارة عن فضاء مخضر يضم أحد قصور الاستجمام.

ثالثها في كون شبكة المياه التي تمد نافوراته وأحواضه بالمياه والتي تساعد كذلك على تلطيف الأجواء بغرفه، تم توزيعها بطريقة تكاد تكون هي ذات الطريقة المستعملة في قصور الاستجمام الواقعة في ضواحي بعض حواضر دار الاسلام. ولا مجال للإنكار بوجود بصمة اسلامية في هذه التقنية. اذا علمنا بأن المسلمين عامة، ومسلمي بلاد الشام خاصة، كانوا على دراية منذ القرون الهجرية الأولى بتقنيات استنباط المياه وقودها عبر القنوات.

ومن حسن الحظ أن قصر "عزيزة" حظي منذ تسعينيات القرن الماضي بتثمين يليق بقيمته. فقد قامت السلطات المشرفة على تدبير الشأن العام في بلرم بترميمه. وحولته سنة 1991 الى مؤسسة عمومية يحتضن أحد أجنحتها متحفا خاصا بالفن الاسلامي. ولا شك أنها بإجرائها هذا قد استحضرت انفتاح افراد مجتمع صقلية على بعضهم البعض واشتراكهم سويا في عمارتها.

ج) قنطرة "الأميرال"

تقع هذه القنطرة جنوب غرب بلرم على نهر أوريتو (Oreto) المعروف بوادي عباس في كتب الجغرافيا العربية. تم تشييده سنة 1131 ميلادية من قبل جورج الأنطاكي، "أمير أمراء البحر" الذي تحدثنا عنه فيما مضى بوصفه أحد أبرز الأعلام الذين كانوا يترددون على قصر روجر الثاني. وكان يتحدث الاغريقية واللاتينية والعربية. ومن حسن حظه أنه المثقف الوحيد الذي يحضر اسمه بقوة من بين المثقفين الذين انفتحوا على تقنيات المسلمين في مجال البناء والعمارة عامة، وعلى تقنيات اقامة القناطر بوجه خاص.

وقد استطاع تخليد اسمه في حقل العمارة لأنه وضع تصميما محكما للقنطرة بشهادة بعض الباحثين. بحيث جعلها مرفوعة على سبعة أقواس مدببة. أحدها قوس مركزي كبير تقع على يمينه ويساره أقواس كبرى نسبيا. وبين كل قوسين قوس أصغر حجما[1]. وقد امدتها تلك الأقواس بقدرة التحمل والصمود أمام عاديات الدهر حتى أن السيل الجارف الذي شهدته بلرم سنة 1931 والذي أدى الى ارتفاع منسوب مياه نهر أوريتو مر دون أن يلحق بها أي تأثير.

د) كاتدرائية البلاط

تعد هذه الكاتدرائية اشهر كاتدرائيات بلرم. وتمثل جزءا من القصر الملكي أو قصر النورمان الذي تحدثنا عنه.

يعتبرها روبرتو كلندرا (Roberto Calandra) وديميسيلا أليسي (Domitilla Alessi) معلمة فريدة من نوعها اختلطت فيها فنون الشرق والغرب[2]. ويؤكد كبرييل تورنامبي (Gabriele Tornambé) بدوره بأنها مؤسسة دينية كاثوليكية وأورثوذكسية في ذات الوقت بالنظر لكونها شيدت في وقت كانت فيه المسيحية الأورثوذكسية مازالت قوية

---

[1] - يمكن العودة بهذا الخصوص لكتاب:

Philippe Croizette Desnoyers, Cours de construction des ponts, Paris, Ch. Dunod Éditeur,1885, Tome I, p.38

[2] - أنظر الفصل الخاص بهذه المعلمة ضمن كتابهما:

Palazzo dei Normanni, Palerme, Novecento, 1999.

الحضور في صقلية. كما حضر في هندستها الاسلام كذلك ممثلا في السقف المقبب الذي يفيد، حسب رأيه، بخضوع الانسان لخالقه[1].

وتؤكدالباحثة باتريزيا فابري (Patrizia Fabbri) بدورها بأن الذين صمموها، جعلوا السقف الذي يعلو جدرانها مقببا محمولا على مقرنصات تسمح بالانتقال المرن من المساحة المربعة الى القبة. ولا يوجد مثيل لهذه المقرنصات في كنائس الغرب المسيحي. لأنها من عناصر البناء في المساجد الكبرى بحواضر دار الاسلام[2]. كما أبدع فيها الحرفيون المسلمون والمسيحيون الأورثوذكسيون فجعلوها أحسن أجزاء المركب المعماري ككل حين كسوا بعض جدرانها بالمقرنصات المزخرفة وبعضها بالفسيفساء. وزينوها بمشاهد ذات دلالات دينية.

ومن ثم، فإن الحرفيين الذين قاموا بتزيين وزخرفة الكاتدرائية كانوا منفتحين على المعمار البيزنطي والعربي – الاسلامي وفي الوقت ذاته عبروا عن خصوصية صقلية حين اقترحوا تزيين تلك المقرصنات برسومات تجسد أفرادا آدميين. ومثل تلك الرسومات لا توجد في المساجد الاسلامية. وتعكس الى حد بعيد التنوع الديني الذي كان سائدا في صقلية خلال الحقبة النورمانية.

نستطيع أن نقول في ختام ما أوردناه في هذا الفصل أن صقلية شهت "مشروعا ثقافيا" في عهد النورمان قام على مبدا التعايش بين الأديان والثقافات وكرس في الوقت ذاته هذا المبداعلى اعتبار أن جميع فعاليات المجتمع شاركت فيه. رغم أن مشاركة اليهود ظلت محدودة نسبيا حتى عهد فردريك الثاني.

ولكن في الوقت الذي بدأت تتضح فيه اسهامات مثقفي هذه الطائفة، تراجع دور مثقفي الطائفة المسلمة نظرا لتراجع أعداد المسلمين ونظرا لصعوبة الأوضاع التي أصبحوا يعيشونها في عهد الملك المذكور والتي أفضت الى سلسلة انتفاضات قاموا بها كما أشرنا الى ذلك فيما مضى.

---

[1] - Gabriele Tornambé, "La chapelle palatine dans le palais des normands. Carrefour de traditions religieuses et liturgiques", in Actes des 60e Semaines liturgiques à Saint-Serge, Paris 2013, Aschendorff Verlag, 2016.

[2] - Patrizia Fabbri, Art et histoire, Op.cit., p. 15.

وربما هذا ما يفسر كون النخبة التي كانت تحيط بفردريك الثاني لم تكن تضم أعلاما مسلمين. فقد ساءل بخصوص بعض القضايا الرياضية والفلكية، علماء من صقلية، وعلى رأسهم ميخائيلوس سكوتوس (Michaelus Scotus). ولكنه حين أراد الاحاطة بوجهة نظر المسلمين حول قضايا فلسفية، اضطر لمساءلة مفكرين من خارج صقلية. ونعني بهذه القضايا ما يعرف باسم "المسائل الصقلية"[1].

وتسمح اثارة هذه "المسائل" والسياق الذي وضعت فيه ابداء ملاحظتين:

أولاهما أن المشروع الثقافي الذي وضع أسسه روجر الثاني تواصل خلال عهد الملوك الذين حكموا صقلية بعده. واستكمل نضجه في عهد فردريك الثاني. وكان من الممكن أن يزداد توهجا في عهد مانفريد. ولكن الأقدار حالت دون ذلك بمقتله في أواخر فبراير 1266 ميلادية في وقعة جمعت بين قواته وقوات شارل الأول الأنجووي (Charles I d'Anjou) ملك نابولي.

ثانيهما أن الملوك النورمان قاموا بدور حاسم في تبلور "المشروع الثقافي" لأنهم لم يكتفوا بالإشراف على مجرياته، بل ساهموا فيه بقسط وافر. ونعتقد أن ذلك ما اعطاه طابع الاستمرارية وسمح لجميع فعاليات المجتمع بالمشاركة فيه بنصيب.

وقد بدأ دورهم منذ ان قرروا ترسيم اللغات الثلاث وإقرار الديانات الثلاث. واستمر طيلة مسيرة المشروع بإتاحة الفرصة لجميع المثقفين الذين انخرطوا بدورهم في المشروع كما وضحنا ذلك من خلال الحديث عن تجليات وصيغ الانفتاح والمشاركة بينهم في مختلف حقول المعرفة.

---

[1] - هي خمسة أسئلة تتعلق بالكون والعلم الالهي والنفس. راسل فردريك الثاني في موضوعها بعض حكام كيانات المشرق الاسلامي. فتوصل باجوبة عنها لم تقنعه. فسأل عمن يمكنه الاجابة عنها من مفكري وفلاسفة الغرب الاسلامي. فأحاله خاصته على المفكر والفيلسوف أبا محمد عبد الحق بن سبعين الأندلسي. فراسل فردريك الثاني في موضوعها الخليفة الموحدي عبد الواحد الرشيد بن المأمون الذي كلف ابن سبعين بالرد عليها.

يمكن الاطلاع عليها وعلى أجوبة ابن سبعين عنها في كتاب الكلام على المسائل الصقلية. قام بتحقيقه وعلق على حواشيه محمد شرف الدين يا لتقايا، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1941.

وبناء عليه، نعتقد أن مسألة التعايش بين الأديان والثقافات، التي ما زالت تثير كثيرا من الجدل، منوطة بمثقفي العالم الذين عليهم الخروج من الظل والعمل على مد الجسور فيما بينهم أولا. ثم تكثيف الجهود بعد ذلك لإعادة بناء الثقة بين الناس.

ورغم ذلك، لا نعتقد أن مبادراتهم لوحدها قادرة على تحقيق المبتغى. بل تحتاج الى سند سياسي أوبالأحرى مؤسساتي. نراه في هيئة أممية قادرة على إصدار قرارات ملزمة لجميع دول العالم باحترام مبادئ التعايش. لأن تلك القرارات ستعطي، من دون شك، زخما لما يقوم به المثقفون وتضمن لفعلهم الاستمرارية والنجاعة.

خاتمة

انتهينا الى القول بأن تحقيق التعايش بين الأديان والثقافات في حاجة الى هيئة أممية قادرة على اقرار مبادئه وإلزام جميع الدول باحترامها كما هو الشأن مثلا بالنسبة لحقوق الانسان التي أضحت اليوم ميثاقا ملزما لجميع دول العالم الموقعة عليه.

ومما لا شك فيه أن السند السياسي أو اللمؤسساتي، سيضمن الاستمرارية والفعالية لما يقوم به المثقفون. وفي انتظار أن يتحقق هذا المسعى، يجب أن يقوم المثقفون، من أتباع مختلف الأديان والعقائد، بتمتين الروابط فيما بينهم كأفراد وكهيئات ومؤسسات (مختبرات ومجموعات بحث). ثم يقومون بتكثيف جهودهم لإعادة بناء الثقة. كما يجب أن تتسع دائرة الأطراف المهتمة بموضوع التعايش بين الأديان والثقافات لتشمل الى جانب المثقفين، المؤسسات التعليمية والتربوية، بمختلف اسلاكها من روض الأطفال الى المؤسسة الجامعية، وكذلك المؤسسات الثقافية والرياضية في سائر انحاء العالم. ويستحسن ايجاد صيغة لتنسيق الجهود وفق برامج محددة تقوم بصياغتها لجان مختصة وتشرف عليها الهيئة الأممية المشار اليها.

أولا: في تكثيف المثقفين لجهودهم

وضحنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب كيف أن مثقفي صقلية، من أتباع الديانات الثلاث، انفتحوا على بعضهم البعض واشتركوا سويا في اثراء "مشروع ثقافي". فتعالوا عن انتماءاتهم العرقية والدينية واختلافاتهم اللغوية. ورسخوا في أوساط عامة المجتمع مبادئ وقيم التعايش. كما تركوا لمثقفي العصور اللاحقة وللإنسانية جمعاء درسا خالدا.

وقد تجلت صيغ الانفتاح والمشاركة بين أولئك المثقفين في عدة حقول معرفية. والواجب أن يتم الأمر على نفس المنوال بين مثقفي عالم اليوم رغم كثرة المثقفين وتعدد التخصصات المعرفية ودقتها.

وطالما أن الهدف واحد، فإن كثرة المثقفين مستحبة. وإن تعدد مجالات الفعل غير مضر شريطة أن يطبع هذا الفعل نوع من التنسيق وتتم اجرأته وفق برنامج من ضمن البرامج المشار اليها أعلاه.

فالكاتب الصحفي مطالب بصياغة مقالاته وفق مبدأ التعايش. وذلك بتبخيس الكراهية والتميز العنصري أو الديني... ونفس الرؤية يتوجب أن تحكم عمل الروائي والكاتب المسرحي وكاتب سيناريوهات الأفلام والمسلسلات التلفزية وكذلك الشاعر والباحث المؤرخ وعالم الاجتماع والفيلسوف.

ولا يخفى أن أي منتوج ثقافي، من قبيل المقال الصحفي أو الرواية أو البحث التاريخي أو قصيدة الشعر أو المشهد المرئي أو المسموع، أضحى اليوم يصل بسرعة الى القراء بفضل تطور وسائل النشر الورقي عامة ووسائل النشر الالكتروني خاصة. وتسمح هذه الأخيرة، كما هو معروف، بنقل النص أوالصورة أوالصوت بسرعة متناهية في جميع اصقاع العالم.

وقد بات معروفا اليوم أن تأثير هذه الوسائل على القراء أفضل من تأثير القرارات الصادرة عن المؤتمرات والملتقيات، خاصة اذا لم توضع موضع التنفيذ بدعم من هيئة ذات ثقل ومصداقية.

ويمكن الوقوف على هذه الحقيقة بتتبع التأثير الفعال لما يصدر عن مواقع التواصل الاجتماعي مقارنة بما يصدر عن الهيئات السياسية أو الهيئات المنتخبة. حتى

أن هذه المنصات أصبحت تمثل اليوم سلطة ذات نفوذ واسع وقوي جعل القادة وصناع القرار يحسبون لها ألف حساب.

وغني عن البيان أن استغلال مثل هذه الوسائط يساعد على مد جسور التواصل ونشر قيم التسامح والتعايش بين الرواد والمبحرين كيفما كانت لغاتهم وأجناسهم ودياناتهم.

ثانيا: في توسيع دائرة الأطراف المهتمة بقضية التعايش بين الأديان والثقافات

تحدثنا في مقدمة الفصل الأول من هذا الكتاب عن فعاليات المؤتمر السنوي الحادي عشر للأقلية المسلمة بايطاليا الذي انعقد بمدينة كتانيا (Catania). وذكرنا أن المساعي تواصلت بعده من أجل مد الجسور بين أتباع الديانات. وتمثلت تلك المساعي في ميلاد "الفدرالية الجهوية بصقلية" التي وضع مؤسسوها نصب اعينهم تعزيز الحوار بين الأديان.

وقام مركز الدوحة الدولي للحوار بين الأديان بدور نشيط منذ نشأته. تمثل في عقد سلسلة مؤتمرات واتخاذ عدة اجراءات للتقريب بين أتباع مختلف الديانات. وكان أول مركز وسع دائرة الحوار لتشمل اليهود الى جانب المسلمين والمسيحيين.

وقامت مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين من جانبها بإحداث كرسي للثقافة العربية في جامعة بلرم. وتروم نشر الثقافة واللغة العربيتين بين الطلبة والباحثين وعموم القراء الايطاليين. وكذلك مد جسور المودة بين العرب والأوربيين، أي بين المسلمين والمسيحيين. كما كان الشأن خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية.

وتندرج في نفس الاطار هيئات ومؤسسات أخرى رسمية تروم بدورها توطيد الحوار بين الأديان والثقافات. نذكر من أبرزها مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي للحوار بين أتباع الأديان والثقافات (كايسيد). الذي يعتبر منظمة حكومية دولية تضم دولا مؤسسة. هي المملكة العربية السعودية والنمسا واسبانيا وحظيرة الفاتيكان. يرأسها قادة الدول المذكورة. ويضم مجلسها الاستشاري عددا كبيرا من علماء الدين الممثلين لمختلف الأديان والعقائد.

ولا ننكر بأن بعض هذه الهئيات تقوم بدور رائد لأنها تتوجه بالخطاب مباشرة للقادة السياسيين ورجال الدين الذين تقع على عاتقهم مسؤولية صون مبادئ التعايش.

ولكن الأجدر في اعتقادنا، أن تكون المبادرات عملية أكثر وأن تتم وفق آليات محددة وأن تتجه في المقام الأول نحو الناشئة والشباب الذين يتوجب تربيتهم على التسامح ونبذ العنف والكراهية واحترام الآخر.

ومن هنا جاءت دعوتنا لتوسيع دائرة الأطراف المعنية بقضية التعايش بين الأديان والثقافات لتشمل المؤسسات التعليمية والتربوية والمراكز الثقافية ودور الشباب والنوادي الرياضية، التي يقضي الأمر بأن تتحمل الفعاليات العاملة بها، من هيئة تدريس وأطر تربوية ومنشطين ثقافيين ومؤطرين، مسؤولية تربية مرتاديها على قيم التسامح وقبول رأي الآخر ونبذ الكراهية وما الى ذلك.

وتتموقع فئة من رجال ونساء التعليم وكذلك المؤطرون التربويون والمنشطون الثقافيون وغيرهم في فئة الفاعلين، باعتبارهم ينتمون لدائرة المثقفين. بينما تعتبر فئة اخرى معنية بالفعل. أي أن أفرادها يعتبرون معنيين بما يقدمه زملاؤهم (المنتجون) من منتجات ثقافية وبما تقدمه لهم الجهات الوصية من برامج ومقررات يتوجب أن تكون منجزة وفق منظور يراعي مبادئ وقيم التعايش بين الأديان والثقافات لتربية وتمرين المتلقين على الانفتاح على لغة الآخر وعلى ثقافته ومنظومة قيمه.

ونعتقد أنه في ضوء هذه الجهود يمكن أن يستعيد العالم شيئا فشيئا بعض لحظات صقلية الاسلامية النورمانية.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في انجاز الكتاب

أولا: مصادر عربية

1- ابن الأثير، أبو الحسن علي ابن محمد (توفي سنة 630 هـ)، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت 1987، المجلدات الخامس والسادس والسابع.

2- ابن حزم الأندلسي، أبو محمد على بن أحمد (توفي سنة 456 هـ)، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق الشيخ محمد أحمد شاكر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983، الجزء الأول.

3- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (توفي سنة 367 هـ)، كتاب صورة الأرض، دون ذكر اسم المحقق، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت .1992.

4- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (توفي سنة 614 هـ)، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الأثار الكريمة والمناسك، المعروف برحلة ابن جبير، تحقيق لجنة احياء التراث، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، دون ذكر تاريخ النشر.

5- ابن خلف، أبو حفص عمر (توفي سنة 501 هـ)، كتاب تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، حققه وقدم له وقابل مخطوطاته وضبط نصه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ببيروت 1990.

6- ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى (توفي سنة 486 هـ)، ديوان الأحكام الكبرى أو الاعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تحقيق يحي مراد، دار الحديث، القاهرة 2007.

7- ابن عذاري المراكشي،أبو العباس أحمد بن محمد (توفي بعد سنة 712 هـ)، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، حققه وضبط نصه وعلق عليه، بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الاسلامي، تونس 2013، المجلد الأول.

8- ابن القطاع، أبو القاسم جعفر بن علي السعدي (توفي سنة 515 هـ)، كتاب الدرة الخطيرة، جمع وتحقيق بشير البكوش، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1995.

9- التميمي المغربي الافريقي، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم (توفي سنة 333 هـ)، طبقات علماء افريقية وكتاب طبقات علماء تونس، دون ذكر اسم المحقق، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دون ذكر تاريخ النشر.

10- الشريف الادريسي، أبو عبد الله محمد بن محد (توفي سنة 560 هـ)، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق مجموعة باحثين، مكتبة الثقافة الدينية بور سعيد-الظاهر-القاهرة، 2002، مجلدان.

11- العماد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن محمد (توفي سنة 597 هـ)، كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب ، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحي، الدار التونسية للنشر، تونس 1986، الجزء الأول،

12- مجهول (عاش خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري)، كتاب تاريخ جزيرة صقلية، حققه ونشره ميخائيل أماري (Michele Amari) ضمن مجموعة نصوص نشرها تحت عنوان:

Biblioteca arabo-sicula, versione italiana, Torinoe Roma, Ermanno Loescher, 1857, vol. I.

صدرت نسخة عربية منه عن دار المثنى، بغداد 1857.

كتاب تاريخ جزيرة صقلية، نسخة ثانية حققها ونشرها كوزا لوزي (Cozza Luzzi) تحت عنوان:

La cronica siculo-saracena di Cambridge con doppio testo greco con accompagnamento del testo arabico, Palermo, 1890.

13- المقدسي، أبو عبد الله محمد بن احمد (توفي سنة 380 هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دون ذكر اسم المحقق، دار مدبولي، القاهرة 1991.

14- اليحصبي، أبو الفضل عياض بن موسى (توفي سنة 544 هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت 2012، الجزء الأول.

15- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد (توفي سنة 530 هـ)، كتاب الحوادث والبدع، ضبط نصه وعلق عليه علي بن حسن الحلبي الأثري، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام-الاحساء، 1990،

16- وثائق وعقود عربية حققها ونشرها سلفاطور كوزا (Salvator Cusa) ضمن كتاب:

I diplomi greci ed arabi di Sicilia publicati nel testo origi nale, tradotti ed illustrati, Stabilimento Lipograf. Lao, Palermo, 1868-1882, 2 volumes

ثانيا: مصادر لاتينية وعبرية

1- Ahimaaz Ben Paltiel (mort en 1060), Chronicle, hebrew text and english translation by Robert Bonfil, in History and Folklore in a Medieval Jewish Chronicle, Brill, Leiden/Boston, 2009, pp.226-355.

2- Amatus Casinensis (mort vers 1105), Ystoire de li Normant, Édition, Odéen Jean-Marie Delarc Rouen, A. Lestringant, Librairie de la Société de l'histoire de la Normandie, 1892.

3- Bernard le sage moine franc (mort vers 900), Itinéraire, texte traduit du latin , présenté et annoté par Christiane Deluz, in Croisades et pèlerinages, récits, chroniques et voyages en Terre Sainte, ouvrage collectif, Paris, Robert Laffont, 1997

4- Erchempertus (mort après 890), Historia Langobardorum Beneventanorum, chronique mise en ligne sur le site de la Librairie Latine, http://www.thelatinlibrary.com

5- Gaufridus Malaterra (mort après 1100), De rebus gestis Rogerii Calabriae et Siciliae comitis et Roberti Guiscardi ducis fratris eius. Chronique mise en ligne sur le site de la Librairie Latine, http://www.thelatinlibrary.com/malaterra.htm

6- Guillelmus Apuliensis (mort après 1112), Gesta Roberti Wiscardi, poème mis en ligne sur le site de la Librairie Latine.

7- Petrus de Ebulo (mort après 1220), Liber ad honorem Augusti sive De rebus siculis, poème mis en ligne sur le site de la Librairie Latine.

8- Theodosius moine de Syracuse (mort après 880), Lettre de la prison à l'archidiacre de Palerme Léon, traduite du grec par César Famin in Histoire des invasions des Sarrazins en Italie du VIIe au XIe siècle, Paris, Librairie de Firmin Didot frères 1843, Tome I, pp. 348-371.

9- Solomon bar Simson,(vivant en 1140), Chronicle, hebrew text translated into english by Shlomo Eidelberg, in The Jews and the Crusaders. The Hebrew chronicles of the first and second crusades, Wisconsin, University Press, 1977, pp. 21-72.

ثالثا: مراجع عربية

1- أبو خليل شوقي، فتح صقلية بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، 1998.

2- احسان عباس، العرب في صقلية. دراسة في الأدب والتاريخ، دار الثقافة، بيروت 1975.

3- اختيار أسامة، الشعر العربي في جزيرة صقلية. اتجاهاته وخصائصه الفنية، منشورات وزارة الثقافة والهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2008.

4- حسين عبد الرزاق، الأدب العربي في صقلية، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2013.

5- حمودة عبد الحميد حسين، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي حتى قيام دولة الفاطميين، الدار الثقافية للنشر، القاهرة 2007.

6- التليسي بشير رمضان، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الاسلامي خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، دار المدار الاسلامي، بيروت 2003.

7- شحلان أحمد، التراث العبري اليهودي في الغرب الاسلامي. التسامح الحق، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، 2006.

8- الصكوحي وجيدة، تجليات فنون العمارة العربية الاسلامية بجزيرة صقلية، منشورات مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت 2017.

9- الطيبي أمين توفيق، دراسات في تاريخ صقلية الاسلامية، دار اقرأ، طرابلس 1990.

10- عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، تعريب وتقديم أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، القاهرة 1980.

11- لقبال موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيها الى منتصف القرن الخامس الهجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون ذكر تاريخ الطبع.

رابعا: مراجع أجنبية

1- Ammari Michele, Description de Palerme au milieu du Xe siècle de l'ère vulgaire par Ebn-Haucal, Paris, Imprimerie Royale 1845.

2- Barnavi Élie , *Histoire universelle des Juifs*, Paris, Hachette, 1992.

3- Baron de Bazancourt, Frédéric Joseph Lecat, Histoire de la Sicile sous la domination des Normands, depuis la conquête de l'ile jusqu'à l'établissement de la monarchie, Paris, Amyot, Libraire- Éditeur, 1846, 2 Tomes

4- Batiffol Pierre, L'abbaye de Rossano. Contribution à l'histoire de la Vaticane, Paris, Alphonse Picard Editeur, 1891.

5- Bécavin Georges, L'école de Salerne et les médecins salernitains, Paris, J.-B. Baillère, 1888,

6- Bramoullé David, Les Fatimides et la mer (909-1171), Leiden, Boston, Brill, 2020.

7- Bresc Henri, Livre et société en Sicile (1299-1499), Centro di Studi filologici e linguistici siciliani. Supplement al bollettino 3, Palermo 1971,

8- Un monde méditerranéen: économie et société en Sicile, 1300-1450, Rome, École Française de Rome et Palerme, Academia di Scienze, Lettere e Arti di Palermo, 1986, 2 vol.

9- Arabes de langue, Juifs de religion : L'évolution du judaïsme sicilien dans l'environnement latin, XIIe-XVe siècle, Paris, Éditions Bouchène, 2001.

10- Colective book, Jews in Byzantium. Dialectics of minority and majority cultures, Edited by Robert Bonfil, Oded Irshai, Guy G. Stroumsa, Rina Talgam, Brill, Leiden-Boston, 2012.

11- De la Primaudaie Félix Élie, Les arabes en Sicile et en Italie. Les normands en Sicile et en Italie, Paris, Challamel. Ainé, Libraire-Éditeur, 1868,

12- Dolizalek Isabelle, Arabic script on christian kings. Textile inscriptions on royal garments from norman Sicily, Walter the Gruyter Gmbh, Berlin- Boston, 2017.

13- Ghazan Robert,, God, Humanity and history. The hebrew first crusade narratives, Berkley, Los Angeles, London, University of California Press 2000.

14- Guillou André, Recueil des inscriptions grecques médiévales d'Italie, Rome, Publications de l'École Française de Rome, 1996.

15- Giuseppe Caronia, La Zisa de Palerme, de l'histoire et de la restauration. Bari, Laterza éditeurs, 1982.

16- Johns Jeremy, Arabic administration in Noman Sicily. The royal diwan, Cambridge University Press, Cambridge 2002.

17- La Lumia Isidoro, Histoire de l'expulsion des juifs de Sicile 1492, traduction Michel Valensi, Paris, Éditions Allia, 1992.

18- Lane Fox Robin, Païens et chrétiens : La religion et la vie religieuse dans l'Empire romain de la mort de Commode au Concile de Nicée, trad. Fra. Ruth Alimi, Maurice Montabrut et Emmanuel Pailler, Presses Universitaires du Mirail, 1997.

19- Nef Annliese, Conquérir et gouverner la Sicile islamique aux XIe et XIIe siècles, Rome, Publications de l'École Française de Rome, 2011.

20- Shlomo Simonsohn, The Jews in Sicily, (383-1300), Brill, Leiden-New York-Koln, 1997, Vol. I.

خامسا: مداخلات ضمن مؤلفات جماعية

1- Bresc Henri, "La propriété foncière des musulmans dans la Sicile du XIIe siècle: Trois documents inédits",in B. Scarcia Amoretti, Del nuovo sulla Sicilia musulmana , Rome , 1995 , pp . 69-97..

2- "Frédéric II et l'Islam" , in Frédéric II (1194-1250) et l'héritage normand de Sicile, livre dirigé par Anne-Marie Flambard Héricher, Presses Universitaires de Caen, Caen, 2001, pp. 79-92.

3- Bresc Henri et Nef Annliese, "Les actes en arabes dans la Sicile d'époque normande" in, L'autorité de l'écrit au Moyen Age (Orient Occidentà, actes du 39e congrès de la SHMESP, Editions de la Sorbonne, Paris, 2009, pp. 73-87.

4- Cuozzo Ericco, "Les évêques d'origine normande en Italie et en Sicile ", in Les évêques normands du XIe siècle, livre dirigé par Pierre Bouet et François Neveux, Caen, Presses Universitaires de Caen,1995, pp. 67-78.

5- Dejugnat Yann, "Juda Hlèvi. Un poète juif au carrefour d'une culture islamique du voyage", in Acteurs des transferts culturels en Méditerranée médiévale, ouvrage collectif sous la direction de Rania Abdellatif, Yassir Benhima, Daniel König et Elisabeth Ruchaud, Oldenbourg Wissenschaftsverlag, 2012, pp. 84-99.

6- Fodale Salvator, "L'église et les normands en Italie du sud et en Sicile", in Les normands en Méditerranée aux XIe-XIIe siècles, ouvrage sous la direction de Pierre Bouet et François Neveux, Caen, Presses Universitaires de Caen, 2001, pp. 171-178.

7- Mandala Guiseppe, "La migration des juifs du Garbum en Sicile (1239)", in Maghreb-Italie : des passeurs médiévaux à l'orientalisme moderne (XIIIe- milieu XXe siècle), Rome, Publications de l'École française de Rome, 2010, pp. 19-46.

8- Nef Annliese et Bresc Henri, "Les mozarabes de Sicile (1100-1300)",in Cavalieri alla conquista del Sud - Studi sull'Italia normanna in memoria di Léon-Robert Ménager, éd. Erico Cuozzo et Jean-Marie Martin, Bari, 1998, pp. 134-156.

9- Nef Annliese, "La déportation des musulmans siciliens par Frédéric II. Précédents, modalités, signification et portée de la mesure", in Le monde de l'itinérance en Méditerranée de l'Antiquité à l'époque moderne, ouvrage dirigé par Claudia Moatti, Wolfgang Kaiser et Christophe Pébarte, Pessac, Ausonius- Éditions 2009, pp. 455-477.

سادسا: مقالات أجنبية

1- Batiffol Pierre, "Note sur la chronique arabe dite de Cambridge" , Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, no 34-35, 1890, pp. 394-402.

2- Bercher Henri , Courteaux Annie et Mouton Jean,"Une abbaye latine dans la société musulmane:Monreale au XIIe siècle", Annales Economies Sociétés Civilisations, no 34, année 1979, pp. 525-547.

3- Bresc Henri et D'angelo Franco, "Structure et évolution de l'habitat dans la région de Termini Imerese", Mélanges de l'École française de Rome. No 02. 1972, pp. 361-402.

4- Britt Karen C. , "Roger II of Sicily: Rex, Basileus and Khalif ? Identity, politics and propoganda in the Cappella palatina" , Mediterranean Studies, Vol. 16, 2007, pp. 21-45.

5- Cailleaux Christophe, "Chrétiens, juifs et musulmans dans l'Espagne médiévale. La convivencia et autres mythes historiographiques ", Cahiers de la Méditerranée, no 86, 2013, pp. 257-271.

6- David Engels, "Entre tolérance, désintérêt et exploitation :Les relations christiano-musulmanes en Sicile du IX^{e} au XIII^{e} siècle et leurs racines dans l'histoire religieuse de l'île" , Cahiers de la Méditerranée, no 86, 2013, pp. 273-300.

7- Dolbeau François, " A propos d'un florilège biblique traduit du Grec par Moïse de Bergame ", Revue d'Histoire des Textes, no 24, 1994, pp. 337-358.

8- Guillou André, "Grecs d'Italie du Sud et de Sicile au Moyen Age: Les moines", Mélanges de l'École française de Rome, no 75, 1963, pp. 79-110.

9- Guiseppe Agnello, "Stato presente degli studi di

archeologia cristiana in Sicilia" , SicGymnasium, no 02, 1949, pp. 24-260.

10- Janin Raymond, "Les juifs dans l'empire byzantin", Revue des études byzantines, no 93, 1912, pp. 126-133.

11- Labe Udovitch Abraham, "Juifs et Musulmans en Sicile aux XIe-XIIIe siècles: Espace et communication", Hesperis Tamuda, vol. XXXVI, 1999, pp. 15-30.

12- La rosa Christina, "Le moyen arabe de Sicile: état de la question et nouvelles perspectives", Synergies Monde arabes, no 07, 2010, pp. 59-65.

13- Martin Jean-Marie, "L'empreinte de Byzance dans l'Italie normande. Occupation du sol et institutions", Annales Histoire, Sciences Sociales, no 04, 2005, pp. 733-765.

14- Nef Annliese, " Géographie religieuse et continuité temporelle dans la Sicile normande (XIe-XIIe siècle) le cas des évêchés", Cahiers d'Études Hispaniques Médiévales, Année 2003, pp. 177-194.

15- Turner Ralph Victor, "Les contacts entre l'Angleterre normano-angevine et la Sicile normande" , Études normandes, no 03, 1986, pp. 39-60.

16- Vivien Prigent, "La Sicile byzantine, entre papes et empereurs (6ème-8ème siècle)", in Zwischen Ideal und Wirklichkeit: Herrschaft auf Sizilien von der Antike bis zur Frühen Neuzeit, février 2019, pp. 201-214.

سابعا: مواقع على شبكة الأنترنيت

1- موقع المؤسسة الوطنية (الايطالية) للإحصاء:

Istat. Instituto Nazionale di Statistica. https:// www.istat.it

2- موقع الدليل الخاص بمقاطعات وعمالات ومناطق ايطاليا:

https://www.tuttitalia.it

3- موقع مجلة La Croix:

https:// www.la-croix.com

4- موقع: Le courrier international

http://www.courrierinternational.com

فهرس المحتويات

توطئة 3

الفصل الأول 7

التعدد الديني والتنوع اللغوي والثقافي في صقلية

خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية

أولا: التعدد الديني في صقلية 9

1) المسيحية في صقلية 9

2) اليهودية في صقلية 16

3) الاسلام في صقلية **20**

ثانيا: التنوع اللغوي والثقافي 24

1) الناطقون باللغة العربية 26

أ) العرب 26

ب) البربر 27

ت)العناصر الفارسية والسودانية والصقلبية 30

ث) المسيحيون المعتنقون للاسلام 32

ج) المسيحيون المستعربون 34

ح) اليهود 34

2) الناطقون باللغة الاغريقية 36

أ) المسيحيون الاغريق 36

3) الناطقون باللغة اللاتينية 37

أ) اللومبارديون والمسيحيون من أصل قوطي أو روماني 37

الفصل الثاني 43

بعض مظاهر التعايش بين معتنقي الديانات الثلاث

خلال الحقبتين الاسلامية والنورمانية

أولا: حضور معتنقي الديانات الثلاث في المؤلفات الاسلامية

والمسيحية واليهودية 44

1) حضور معتنقي الديانات الثلاث في المؤلفات الاسلامية 44

2) حضور معتنقي الديانات الثلاث في المؤلفات المسيحية 50

3) حضور معتنقي الديانات الثلاث في المؤلفات اليهودية 58

ثانيا: تجليات التعايش من خلال التجاور في السكن والاشتراك

في الحياة العامة 63

1) **التجاور في السكن** 63

2) **الاشتراك في الحياة العامة** 69

ثالثا: تجليات التعايش على المستوى السياسي **71**

رابعا: تجليات التعايش على مستوى الأنشطة الاقتصادية **73**

خامسا: تجليات التعايش على مستوى الحياة الدينية 79

الفصل الثالث 83

أشكال وصيغ الانفتاح والمشاركة بين مثقفي صقلية

أولا: صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل الطب 85

ثانيا: صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل الأدب **90**

1) نصوص المرحلة الأولى 91

2) نصوص المرحلة الثانية 92

أ) اسهامات الأدباء المسيحيين الاغريق 92

ب) اسهامات الأدباء المسيحيين اللاتين 94

ج) اسهامات الأدباء المسلمين 95

ثالثا: صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل الجغرافيا 99

رابعا: صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل الترجمة 101

خامسا: صيغ الانفتاح والمشاركة في حقل العمارة 105

أ) القصر الملكي أو قصر النورمان 107

ب) قصر "عزيزة" 107

ج) قنطرة "الأميرال" 109

د) كاتدرائية البلاط 109

خاتمة 113

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة في انجاز الكتاب 117